عدو النساء

لـ أحمد سعيد أسمري

كنت سأمسي زوجة الرجل الذي أطلقن عليه عدو النساء، قبل إطلاقي عليه النار ..

في اليوم الذي تلى إعترافنا بأننا في علاقة، طلب مني الذهاب لمركز رماية لِتعلم إطلاق الرصاص، وجاء طلبه هذا لأنه تمنى في طفولته دوما إمتلاك مهارة التصويب ليشارك في أعمال المقاومة وتحرير الأرض والشعوب..

لا يعرف ما الذي أحيا فيه تلك الرغبة مرة أخرى!، ربما خوفًا علي - أشك - ربما خوفًا على نفسه من أي مؤامرة عليه من النساء، أو خوفًا من العالم كله..

أثنا عشر يومًا، أسبوعان دون الإجازة، التي يجلس فيها خلف مكتبه يقرأ سواء كتاباتي البدائية كما يصفها لي ليشجعني على الأفضل، أو كتاب أختاره له بيدي من مكتبته التي انشأها في بيتنا المستقبلي قبل أي شيء، كما طلب مني لمدة عشرة أشهر باستثناء أول شهرين الذي درسني فيهما فحصا وأنا أيضًا، وأعطاني الفرصة لذلك..

يَهبُ من مَكانِه عازمًا على أخذي لمدينة الملاهي الوحيدة التي تُجاور المجمع السكني لبيتنا، في المدينة الجديدة الهادئة؛ التي كره دومًا السكن فيها، حتى وافقت على اتخاذها مكان صالح للزواج..

نلعب عربات التصادم وبالطبع كأي حبيبين نجد أنفسنا أكثر اثنين عدائيين في الحلبة، وفي معظم المرات حرص على حجز الحلبة لنا فقط، أحب الفكرة بعد ليلة لم يأتي غيرنا للعبة،

فالجو عاصف مترب، وأصر هو على النزول في هذه الظروف؛ لأنه وعدني في هذا اليوم، أن يأكل معي المخفوق الثلجي ونلعب العربات، ويحصل لي على دب في اليوم الذي يتقن فيه التصويب والرماية، وقد رأيت استحالة ذلك، لأن على حد روايته فإن رعشة يده هذه قد تسببت فيها حماقة امرأة.

نتمشى في الأرجاء متشابكى الأيدي، نتمايل كزعماء دولتين، يضمران العداء ويُحَضِرون الأسلحة خلف الخطوط، حتى نصل للعرض المكرر للبهلوان، زي لأمرأة في رداء مهرج تقليدي ولكن بشكل أنثوي تهتز فيها كل دهونها وغضاتها، ومن ثم نتركها تجذب المتفرجين، وهو يتسائل كل مرة عن، من يستغل من ؟!..

ولما بطل عنِدي عَندي والتعجب والهزل في ردي عليه سألته في هذه مرة؛ تقصد من؟! وما المعنى الخفي الذي خلف سؤالك؟! صار يسأل ويجيب بسؤال وهو يشد على وسطي عدة مرات، حتى ظننت أنه يوشك على استخراج الإجابة من رحمي..

من يستغل من؟!، المرأة التي ترتدي الزي الضيق وهي تعرف جيدًا بأن جسدها كله بارز أمام العالم، وأن له النسبة الأكبر في جذب الحشد؟!، أم الذكور الذين تجمعوا ليتفرجوا على لحمها ومستغلين حاجاتها للمال؟!، وحاجتها لأن تصبح بهلوان، بارتداء مثل هذا الزي، ووضعها كل تلك المساحيق على وجهها التي تخفي وراءه حقيقة ما ..!!

_ لعلمك الجمهور أكثره نساء ..

وهذه دوما ياحبيبتي الكارثة، هي تجمهر النساء، فتجمع النسوة تجدينه على الأغلب يكون على الشيء الرخيص، فالنساء تعشق التخفيضات والرخص، ودون أن تغضبي، يجمحن لترخيص أنفسهن، ولكن..

_ ماذا !!

من يستغل من ؟! ..

سألته وأنا استرجع كلامه الذي حمل في ذلك اليوم توغل كبير في أمر ما، أحسست بشروده أكثر من أي وقت مضى في روايته القديمة؛ أي حقيقة كنت تقصد؟!

هي الحقيقة التي تُخفيها مساحيق كل امرأة، ربما نقص داخلها، أو إرهاقٍ،أو معاناةٍ، أو ربما رجل دفعها إلى ذلك بأي شكل من أشكال القصص التي يحملها في جعبته، هذا الوجه الملون، كل هذا ولم أقل أنها تطمح لأن يُنظر لها كجميلة من النساء أو لإغراء الرجال، لأنك ستقولي لماذا الأمر يتعلق بكم دائمًا؟!، وكأن حياة الرجل للمرأة وحياة المرأة للمرأة وحسب، وكأنكن لستن مثلنا ..

_ ولماذا لا تقول إن المرأة كيان لا يحب الظهور بهيئة ناقصة أو بشكل قبيح أو تبدو محتاجة؟!..

لأن المرأة بشر في النهاية؟! ليس هناك كائن يعيش وحده اسمه المرأة مختلف عن باقي البشر..

أنهى تدريبهُ في مدة وجيزة، وطلب مني التوقف لأن النساء لا يصلحن في شيء سوى مناطحة الرجل وتقليده، حتى الطبخ تفوقَ فِيه عليهن الرجال وأشهر طباخين هم، لا توجد هن في المطبخ العالمي..

المرأة لا تصلح إلا للإنتقام والكيد لأنه لا يحتاج إلى تفكير كثير، لم أعرف لما يطلق جملة مثل تلك في وجهي كلما حضرت وأمسك بيدي ليمرني معه على التصويب، ألم يخشاني قط؟!

عدت في الليلة الرابعة عشر ووجدت الساحة الخلفية من المنزل التي كان يمقتها كثيرا لأنها لم تصلح للزراعة والتحول لحديقة منزل، لملوحتها ورملها الغليظ، فغدت وكأنها جثث لشُجيرات متمايلة، وبقايا أوراق مدفونة بين الرمال لا هي صفراء ولا خضراء، وحشائش هشه، وأرجوحة متهالكة وأريكة من ألواح خشب مقشرة وتمثال نحاسي لمرأة عارية فارغة الرأس والقلب، مبتورة الأيدي متكبرة، منزويه في أبعد ركن من الحديقة، تنظر في مرآة قديمة ملتحقة بقطعة من آثاث متهالك، كانت مُعَشَقَة فِيه، لا أعرف هل وضعها أمامها هنا بالصدفة أو قصد استكمال لوحة سيرالية عن عمد..

زرع بحديقة اثنى عشر خيال مأتة، تتخذ هيئة نساء وكتب عليها بعددها؛ منقصة، سبة أو خطيئة، لايحبها في المرأة، استحق بها لقب، عدو النساء، بعد نشره لروايته شيطان المرأة، التي قلبت عليه كل شيء..

بحث وكتب عنهن فأثار السيدات في المجتمع ضده، حتى اضطر لشراء هذا البيت هروبًا من تنمرهن، وأخبرني أنه كل يوم سيصوب على إحدى تلك الوزر، ويحكي لي قصة عن امرأة أذنبت في حقه وفي حق العلاقة بين الرجال والنساء، وكل ليلة أحضر فيها، أجده ينتظرني في الفناء الخلفي ويلوح لي وهو يعمر المسدس، بأن آتي لجواره أمام العروسة التي يأتي عليها الدور..

"1~الرخص"

في حياة كل طفل يولد، قصة حب لم تكتمل؛ هو لم يتذكر من القصة سوى مشهد يديها وهي تجري بجواره ويحسده كل الأولاد الأخرين على تلك الفتاة التي تجري بجواره تضم يده بشدة، تحتمى فيه من ذلك البناء المهجور في تلك المدينة الجديدة التي قررت المدرسة عمل رحلة لها ولم تكن مجانية، لكن المدرسة كتبت في برنامج الرحلة مناطق شاسعة وخضرة وزيارة أبنية حضارية جديدة، وأنهم أول من يزورنها، أشياء تمنح الفضول قسطًا من الراحة عند أطفال في سن السابعة..

داخل النفق المنسي خلف المبنى العالي أختفت هي وهو، واعتصرت يده حتى خرجا للنور على مرأى زملائهما الذين انقسمت أعينهم؛ ما بين عين تحسد وتشك في أدبهما، وعين تحمد على سلامتهما، ركضا إلى الحافلة وورائهم الحشد يزفهما، حتى أرتاحا على التلة الخضراء وبجوارهما شجيرة نخيل الصحراوية ومساحات مهولة من اللون النباتي، وحولهما الزملاء يتمنون قصة كقصته..

كل هذا جعله في أول يوم بالجامعة يتوجه ناحِيتِهَا؛ وكأنما سيتقدم لطلب يدها، ظنا منه أنها ستتذكر الماضي وقتما ترآه كما رآها، هو متأكد من أنها هي، لم تتغير ملامحها عن تلك الفتاة ذات الوجه الأخضر والشعر المجعد الذي غطاه حجاب بلون وجهها، والعينين القويتين الحادتين ذاتهما، وذاده تأكد هذه النظرة الطويلة له أول ما رأته، وتوترها الشديد حينما بدأت خطواته تقرر سبيلها، وعندما اقترب منها لم تجد سوى الابتعاد عن سكته حل لهذا القلق عند أول كلماته الترحيبية..

لم ترغب في استكمال القصة، فهناك مرحلة جديدة في حياتها، كان كل ذلك في طفولة، وهذا النوع من القصص في الروايات والأفلام فقط، وهي ليست سوى أحلام وأمنيات ضائعة في حياة المؤلفين، لقد تغير شعورها مع مرور السنين، أكثر من عشرة أعوام تُغير أشكال المدن

والحضارات، ماذا كان يَنتظر منها؟!، أو ربما هي خجلت من قصة الأمس البعيد، وشعرت بأنها كانت شيء مشين مثلًا..

عَرِفَ مِنهُ القصة منذُ بِدايتها حُسن مراد؛ صديق الطفولة، فتى أشقر شبيه بأحلام الفتيات عن بطل فيلم السفينة الغارقة الذي ضحى بحياته وأنقذ حُبُه وحَبِيبتُهُ، فِيلم العصر أَنَذَّاك، كانت معه في القسم وذات التخصص، تعرف عليها بعد ذلك، وأمست صديقته..

"كيف تجرأ على إخبارها بذلك؟!"

فاجئه حُسن بأنه أخبرها بالقصة كما وصفها له، وأدعى أنه أقدم على فعل هذا بهدف استغلال قربها منه وبذلك يُقَرب بينهما ويُمسِي حَمَامَة دَاجِلة، يُوصِل ما فشل في إِرساله لها أو يذكرها به...

" طبيعي أنها ستنكر، فلقد أصبحت امرأة وستخجل؛ حتى لو تذكرت الماضي"..

لقد تَركَت الطِفلَة وَرَاءِهَا، هُو عَرِفَ ذلك جيدًا، لَكِنه بحث عن قصة حُب منذ الطفولة، كم هذا ساحر؟!، وهو مقابلة فَتَاتِكَ التي رَكَضَت بِجِوَارك وَأَنت تخرج إلى الشمس وحدك لأول مرة..

بحث عن أي فتاة بين تلك الفتيات الكثيرات الجميلات ليحبها وتحبه؟!، لابد أن من بينهما واحدة ستختاره، لابد أن أقرب واحدة هى فتاة الماضي، لكنها لم تمسي هى ذات الفتاة..

على زاوية أخرى، ما ينفك حُسن عن مرافقة الفتيات، في كل زاوية بالجامعة تجلس واحدة مختلفة معه، تجمعهن فقط الطيبة الزائدة والثقة العمياء في بطل السفينة الغارقة هذا، وما برح أن يحسده على ما هو فيه حتى جاءه كمن يبكي تائه، لايعرف ماذا يفعل؟!

"أنت تعرف أنني أحبها أكثر من أي فتاة أخرى معي"..

حبيبته منذ الطفولة، فحُسن لديه فتاة تشعل قلبه، كما يُشعِل قلب كل أُنثى حَوله، كل طفلة هى امرأة صغيرة، وكل امرأة هي طفلة صغيرة، تستطيع تلك الطفلة اليافعة جعله يفعل لها ماتشاء دون طَلَبُه، كنوع معين من النساء، تجعلك تتمنى رضاها فقط وأن تتفضل عليك وتضحك في وجهك وأنت تحمل لها هدية، فتصير جني الهدايا بالنسبة لها، شوبيك لبيك بين يديها..

قررت ذات ليلة الابتعاد عنه فشعر بالذنب وأن هذا جزاء مصاحبة الفتيات الاتي كما أدعى أنهن يسدن فجوتها في حياته ويبحث فيهن عليها، فجاءه يشكي له من الوضع الذي وصل إليه، بأن هناك فتاة متعلقة به جدًا ولم يقصد هذا لكنها تقربت بشدة منه لدرجة أنه لا يستطيع الفكاك منها، تهرب كثيرًا ومرارًا حتى استزلته ببكاءها لبقاءها جواره، حرمانه العاطفي من حبيبته يجعله يترك للفتاة الأخرى مجالا لِلقَاءات متفرقة، وبين الرغبتين لا يعرف ماذا يفعل مع كل فتاة؟! فتاه فأتاه لينقذه..

"أتطلب مني الذهاب لحبيبتك بدلًا منك؟!"..

"ربما في وقت أخر، أنا أريد منك الأن أمرًا أخطر"..

رغب منه اتخاذ مكانه في قلب الفتاة الأخرى، خلع ملابس دوره وبَدَلَهَا بمَلَابِسِهِ هو في مسرحيته، ولعب دور البطولة لأول مرة، نَاشده في احتلال قلبها بدلا عنه لبضع وقت حتى

تنساه، يجلس معها ويختفي هو، يتعرف عليها بشخصيته اللطيفة ويجذبها حتى تنساه هو وحبه ويمسي بدلًا منه في مكانه داخل قلبها..

"إنها ملتصقة بي وتعتقد أني أحبها، ولقد مللت من ذلك ولا أستطيع أن أظلمها أكثر، وها أنا أهديها شاب ألطف مني وأفضل"

هكذا بدأ الأمر؛ أقنَعَهُ بفعل هذا بدلًا عنه، فلا تجد الفتاة أمامها سوى الجلوس معه تنتظر ظهور صديقه، حتى تكتشف فرق الشخصية فتحب جلسته، لكنها لن تحبه لعقدتها السابقة من صديقه، وبعضهن تقول في نفسها؛ لا يصح أن تحب صديق حبيبها، وتعيش على أملها حتى يذبل أمامها..

استغل فراغه وبحثه عن فتاة له، ليجلسه مسلي لوقت ضحاياه حتى يَنهِي محاضرته كما أِدعى، كما أراد منه وأرغمه بدافع الصداقة في كل مرة، حتى أنه قالها له صريحة "أنت تريد فتاة وأنا أحصل عليهن بسهولة، لا تضيع الفرص من يدك"..

قالها بعد بكاءه على كَتِفِه ذات ليلة، من فراق وعذاب فَتَاتُه التي يحبها حد البكاء..

لكل قلب نقطة ضعف، ونقطة ضعف قلبه احتياجه لفتاة، ونقطة ضعف صديقه هي أن قلبه مع فتاة، هذا يبحث عن حب فتاة واحدة وهذا من أجل حب فتاة يأسر قلب كل فتاة تقابله..

"لم أعد أحتمل كل هذا السخف والقرف"..

تركه يومها وحيدًا تحت تمايل الأشجار مع الهواء الجامح حوله على طرف فرع النيل، لينهي تلك المأساة التي استُغْل فيها حد تغير الروح والنفس، فلم يعد هو، حتى نظرته للنوع الأخر تغيرت، كل فتاة جلس معها كانت تشبهه في سماته، ألهذا سقطا ضحيتان في قفص واحد، لكنه لم يرآهما ضحايا بل رآهن مسافحات لا يقلن عن صديقه دناءه، هن أتجهن وأردن بكامل رغبتهن الشاب الجميل ولم ينظروا للوسيم إلا بعد أن رماهن هو عليه، وأحبوه وآمنوه وآمنوا به وله في أقل من يومين، إنما من مثله يقلقن منه ويختبرنه أو ربما لن ينتظرون منه شيء ولا يشغلون بالهن به، أو ينشغلن به ولن تأتيهن الشجاعة لمصارحته، إنما أمام من ملك الحسن يقطعن قلوبهن بأديهن كنساء يوسف، الفتيات يحبن إصلاح والإهتمام بالفتى الجميل ولا يبزلن مجهود إلا في سبيل جمال طلعته مثلهن مثل الفتيان مع المرأة الجميلة لا يقلن عنهم ولا يزيدن شيء، وهذا الشاب على الأرجح من يخدعهن في النهاية..

ربما هي في النهاية تزوجت غيرهما، تلك الفتاة التي أحبته وظلت صامته بجواره تداعبة بكلمات صداقة عادية وتنجذب إليه لكن دون قرب حقيقي، وهو يوفر لها كل السعادة والمرح، شهر أو عدة أشهر وما إن ظهر حُسن لم تأخذ في تفصيلة يده ثلاثة ساعات وصرفت انتباهها عنه، حتى المرتبطة انجذبت له، كان ساحرًا للجنسين بطريقة دفعته ليبتعد عن منطقته، لم يعد يقترب من أي دائرة تقربه لأن النتيجة معروفة، فكل النساء رخيصات أمامه..

رحل وهو يهرول بعيدًا بسؤال أبدي؛ متى تعرف وترى النساء أن الرجل الجميل لا يبحث عن مرأة واحدة ولن يخلص لها لأنه من السهل إيجاد غيرها بسهولة أم ذاك الرجل الذي لا يجد النساء بسهولة سيظل مخلصًا لها لأنها في تلك اللحظة فرصة عمره، لماذا لا يجرين النساء وراء هذا المنزوي الوحيد؟ الذي لا تتودده النساء فتذهب امرأة واحدة جميلة غير رخيصة تتودد له؟!، فهو قد لا يجد إلا القبيحة والدميمة والبلهاء والحمقاء أو عديمة الأمل أو العاهرة أو من تشتهي أي رجل ؟!!

ذاك اليوم ساعده لأخذ هذا القرار، وهو ترك كل المحيط الذي يسبح حُسن فيه بحسنه، ويتخذ سفينة لأي بر أخر داخل الجامعة، هذا اليوم الذي رأى فتاة الطفولة في يد صديق الطفولة، برغم علمه بقصته معها وبرغم وقوفه بجواره في هراءاته مع فتاياته، لم يخفي حتى علاقته معها ومرا من ساحة الكلية التي يعرف حُسن ومتأكدًا من أنه يجلس فيها مع أحد ضحاياه وبينما هما وقفا يتضاحكان على بابها..

قد كان عَرَفَه حُسن على فتاة حُبهِ؛ الذي يقتله كل ليلة منذ سنوات قبل الجامعة، الفتاة الصغيرة التي تختزن وتحتكر قلب حُسن في صندوق ألعابها، جعلته يبيع بضاعته ودُمَاه على حوانيت النساء بكل رخص، يومها خشى وبحث عنه وتعجل في الوصول له قبل شيطانه، فلقد رآه يهرول منزعجًا بعدما شاهدهما بعينه، أراد الأمساك به قبل صعود الدم في رأسه والأفكار الشيطانية، خوفًا من الذهاب لها يحكي عن كل أسراره التي يملكها في قبضة قلبه وهى لن تنظر إلى من يسرد القصة بل لديها الاستعداد لتصديق عنه أي شيء، فالحياة عادلة لدرجة أنها تَعتَرِف وتعرف بأن الوقوع في حب رجل في وسامته له ضريبته؛ أنه لابد له من الخيانة ولو بالقلَيل، وفي حياته غيرها من النساء، هي كانت أجمل فتاة عرفها يومًا، ولهذا كانت تنتقم وتتملك وتتأمر وتتآمر وتتوحش حتى لا يضيع من يديها، لربما لو كانت أهدأ مسالمة وصريحة؛ لمنعت من البداية كل هذا الخراب، فغباء شيطان امرأة قد يشعل مأساة بالعالم هو في غنى عنها، كِلمَتِهِ التي رددها أمامي كُلَمَا سَرَدتُ له أي مشكلة، فبقدرة عجيبة يُوجد الصلة بين المشكلة والمرأة..

"لقد أحبتني وأنت تعرف لا أستطيع كسر قلبها ورفضها الآن.. أرجوك لا تفعل.."..

" أفعل ماذا؟! أفعل مثلك!.. أَذهَب وَأَكسِر قلبك و قلب فتاتك، وأقول لها لقد حصل على فتاة غيرك، وهذه الفتاة ببساطة هي حبيبة طفولتي الذي إدعى أنه يذيب الجليد بيننا، أم أجعلها تكرهك على كل قصصك مع الفتيات الآخريات، ماذا تنتظر مني؟!.. أنت تعرف أنني لست مثلك، وأني أضعف من فعل هذا.. ولكم تمنيت أن أكون مثلك في تلك اللحظة، وأفسد عليك حياتك، كما أفسدتها علي ولكن طيبتي تشلني، تخنقني، ترعبني من أن آلِم إنسان حتى ظالمي..

أم تقصد أن لا أُحبط وأَغضب وأَكرهك..أنتما أحرار، ولتعلم أنكما لو تزوجتما مثلا، سيكون كل إنجابك فتيات، حتى يُفعل فيهن كما فعلت في كل تلك الفتيات وأنا، هذه العدالة السماوية التي لابد لها التحقق فيك" .

ومن يومها جلس بعيدًا لكن رأسه لا تكف عن الإشعاع بالأفكار، تلك الفكرة لا تصلح وهذه مستحيلة وإنما هذه ممكنة ـ ممكنة جدًا، فقرر كشفه أمام كل الفتيات اللائي عَرَفَهُ عليهن، ويترك الأمر لانتقام النساء، جمع فريق للتوعية بأساليبه وألاعيبه، وأي فتاة حوله يسردن لها أكاذيبه فتبتعد، أول ثمر لهذا الانتقام كان هو كسر قلب فتاة الطفولة، والتي حينما أرادت شكره على ما فعله من أجلها كما تصورت، رفض النظر في وجهها حتى ولومها على رخص موقفها معه، وهكذا كُشفت ألاعيبه داخل محيطه كله، ولم يعرف كيف وصل الأمر لفتاة حُسن لكنه وصل بالنهاية وخسر كل شيء..

لكن فضول الأنثى قد يجعلها تقترب أكثر من عرين الذئب، فتاة جاءت من بعيد أشبه بذات الرداء الأحمر، سمعت عنه ووجست منه، لكن دراستها لعلم النفس دفعتها من أعلى لتقترب منه وتكتشف هل هو مريض أم جاني حقيقي؟!، هل هو مجرم أم ضحية؟!، حتى تلوثت الطبيبة النفسية بعدوى حب المريض، ووقعت المحققة في حب الجاني، في علاقة سرية لم

تكتشف إلا بعد سنوات بعدما تأكدت من حبه لها وإخلاصه وطواعيته وكسر سن ثقته المستزادة، جذبت طرفه لباب المنزل، وربطته كصيادة ماهرة في شجرة أمام بابها..

استغلها كثيرًا كأخر فتاة على وجه الأرض بنسبة له، هي علمت أن محيطه نضب ولم تعد في صحراءه سوى صبارتها التي سيصبر على رويها المر لأنها أخر فرصة له للنجاة والنجاح وحفظ كرامة وجهه أمام من حوله، هو يحتاجها كأخر امرأة تثق به، وهي تحتاجه كإثبات على توفقها العلمي وعلى نجاحها كامرأة وفوزها بأجمل فتى لم تحصل عليه كل تلك النساء..

"2~ الجسد"

في تلك الأحيان التي ابتعد فيها عن منطقة الصراعات كعادته، فما ما إن يرى زوبعة من البشر تتجادل أو تتصارع على شيء حتى ينسحب، ليس خوفًا من الخسارة ولكن كل شيء زائل وكل شيء يعوض، إلا وجع النفس ..

حبه للرسم دفعه لإظهار نفسه كفنان، كمعبر، كمختلف، كمحترف، أو مجرد موهوب، فعندما لا يجد الإنسان نفسه، يشعر بنقصانه وبضعفه أمام نفسه والناس والعالم، فيبحث عن كماله في الفن، في الموهبة، وعادةً تكون الموهبة هي الحياة أو نهايتها، هي الأمل أو الانتحار..

ألهمته عيون الفنانة الصاعدة التي حققت بعض من إثارة الجدل،استنكرها الجمهور لاستغلالها حركات الإثارة بجسدها، تداعب عجلة رياضية وترقص بعنفوان طفلة تتعلم الرقص الشرقي، دون الاعتماد على صوتها المميز وجمالها الشرقي الخاطف، وكانت هذه أول صدمة نسائية إنسانية تقابله في نظرته للجنس عامة، لماذا قد تلجأ فتاة لإثارة الغرائز؟!، وتعرض جسدها على التلفاز لكسب معجبين؟!، وبرغم خجله من مشاهدة ملامحها تتحرك على الشاشة، إلا أنه لم يمنعه من تحميل صورها لمتابعة السحر الذي ينسدل بين عينها، نظرتها البلهاء وحدة محجرها وتعمدها الإثارة في إبراز شفتيها، دفعه لتحريك قلمه الفحم فوق الورق الأبيض، رسمها على أوراق أشجار متفرقة، رسمها وهي لا ترتدي إلا دخان سحاب، ويتموج جسدها في فستانية ضبابية، رسم وجهها على زجاج مكسور، بعين واحدة والأخرى تداريها خصلات شعرها، ومازالت ساحرة أيضًا، رسم عينها فقط، وكانت أكثر صورة أخذت بقلوب الزوار للمعرض الذي أقامه في كلية صديقه حُسن، حتى يأتي ليشاهد وتشاهد صديقة طفولته ويشاهد كل من حضر القصة ولم يقتص، ولم يقتصد..

زار صديق له المعرض وأندهش قليلًا ثم رحل، بعدها بأيام وهو يلملم لوحاته بخيبة بسيطة وعدم اكتراس، لأنه لم يحضر أحد من أصدقاءه القدامى، رغم أنهم يمرون كل يوم على القاعة، وهم ذاهبون لأي شيء؛ محاضرات أو بروفات مسرحية، البعض بعد ذلك تحجج

بالانشغال في هجوم امتحانات التمهيدي، وأحس بالفعل بسوء اختياره للوقت، ففي بدايتك وجمهورك محدود؛ أختار التوقيت المناسب لعرض فنونك دون التفكير في أي أشياء أخرى، كانت هذه نصيحة الرجل الغريب الذي يجلس خلف مكتبه يقلب في لوحاته..

اتصل به - في هذا اليوم- صديقه عاصم، ودعاه للخروج معه؛ فهو يريد أن يعرض عليه فرصة قد لا تتكر، حينما تقابلا فتح أمامه الموضوع دون مقدمات، يريد نصف موهوب يستطيع الأمساك بالقلم فقط وأنت ماهر ومع ذلك هو يريدك في أمر أخر، سأقابلك به وبعدها تحكم أنت..

جلس أمامه يقلب في لوحاته، وقتها سأله عن أخبار المعرض الأخير الذي زاره عاصم وحكي له عنه، فرد هو أن الحضور كان بسيط بسبب الامتحانات، فداهمه بنصيحته التي جاءت وقحة وصريحة تمامً..

عرفه على نفسه بأنه واحد من مصممين الأزياء الصاعدين، يُدعى تامر الشامي، من أصول لبنانية، ينوي الإقامة الدائمة في هذه البلد ويكبر بالفرع الذي فتحه هنا، ويكون أهم فرع لديه ومحور لشركته بالمنطقة، وهو يأمل فيه أن يكون واحد من تلك الشركة أو ربما يصير ممثلا له ونائبا عنه حينما يفتح فرع أخر بالخارج، لكن يجب عليه بدأ الطريق معه من أول فتيلة بالشركة، وأن ينسى كل ما تعلمه عن الرسم والنساء..

تعجب من جملته الأخيرة التى دفعته للنظر في وجه عاصم، الذي صدق على الجملة بهز رأسه، فلما خرجا من مكتبه، سأله هل قلت شيء كنت سردته لك عن حكاياتي مع الفتيات، فأشار بالنفي وقال بكتفه؛ لماذا سأقول له هذا؟!، فسأله بينه، لماذا يقول لي أن أنسى كل ما تعلمته عن النساء؟!!..

في اليوم التالي حضر..

دق الباب ودخل مبتسمًا، بينما تجمد وجه الشامي في دخوله مما دفعه في السؤال؛ هل تأخرت في الميعاد؟!..

على العكس لقد أتيت باكرًا، أخرج وعد على ميعادك بالضبط..

جذبه اندهاشه من حاجبيه إلى الخارج، أي رجل هذا الذي سقط عليه من قدره، عاد ليدق الباب مبتسمًا أكثر، بيد أن الجمود مازال يعلو وجه الشامي..

لقد تأخرت ..

لا بل إنها في تمام الساعة الثامنة..

لا إنها الثامنة وخمسة وثلاثون ثانية..

وكيف سآتي في تمام الثامنة والثانية؟!.. هذه مسافة دخولي و..

كتم غيظه حسبما يفسد أول لقاء عمل في عمره، كما أن الشامي نظر له منفرج العينين غاضب..

عندما يعلمك أحد درس أصمت واستمع للحكمة فقط..

هز رأسه وأنتظر أن يشير له بالجلوس، فتركه يقف بينما هو ينهي على تصميم تحت أصابعه يغمره بألوان خشبية بطريقة ساحرة جعلت من رسمة الفستان في اللوحة تتحرك ويشدو بالتفاصيل، أنزل حاجبيه عندما رأى عين الشامي ترتفع له، فهو يتأكد من أنه يتابعه أم لا!..

هذا ما توقفت عنده أنا وستبدأ من عنده أنت..

أستحال الأمر وشعر بأن الشامي يعجزه وجاء به ليتمسخر عليه، بعدها أمسك التصميم مزقه، وألقاه في القمامة، وأنتظر قليلًا ثم قام من على كرسي مكتبه وأتجه له، تحركت خصلات شعره الطويلة من مقدمة الشعر التي تميل بين السواد والبنية والصفارة عند الضوء الشديد، ورآى الصدرية ذات الموضة القديمة واضحة فوق قميص من تراز حديث جدًا يلمع تحت أي أشعة تسقط عليه، وبنطال لا تعرف هل هو رجالي أم حريمي، هكذا قال في نفسه وهو يتفحص الشامي بعين تمر فوق تفاصيله سريعًا، الذي أمسك بكتفه وسأله..

ماذا تعرف عن النساء؟!..

لا أعرف شيء ..

هذا هو الجواب الصحيح..

ثم جلس أمامه وهو الذي لم يدعوه حتى للجلوس، فنظر إلى المقعد خلفه وجلس من تلقاء نفسه، مع جلسة الشامي في مواجهته على كرسي المكتب، فأبتسم الشامي، فقام من مكانه وأعتذر واستأذن وسأل؛ هل كان من المفترض أن أجلس معك أم بعدك أم لا أجلس مطلقًا..؟!..

لم يجيبه الشامي وأشاح بوجهه ناحية المنطقة المنعزلة من المكتب التي تحتوي على مرسم صغير بمنضدة تستطيع لحقها بالمكتب الخشبي العريض قديم الطراز، وقفز من مكانه وقدم له ورقة تصميمات أزياء وقلم رصاص محترف..

أرسم لي فتاة من رأسك لم تقابلها من قبل؟!، ترتدي رداء لم ترى مثله من قبل؟!، ثم واجهها بفتاة تمنيت ممارسة الحب معها وأرسم لها أكثر رداء مثير لك..

لم يكن صعبًا عليه ما يطلبه، الأصعب هو أن الشامي جلس فوق المكتب بمحازاة رأسه ولم يعطه مساحة من الحرية وكان في بعض الأحيان يشد منه القلم بحرص أن لا يرسم خطًا خطأ على الورقة، ويبتعد ويعود يحمل قصاصات ورق يلقيها على رسمه، يخرج من الباب ويعود بسلة مليئة بمهملات أقمشة يسكبها على رأسه، هو لا يخرجه عن تركيزه بمثقال شيء من الرسم على الورق..

في وقائعه السابقة، أراد نول إعجاب فتاة، فرسم وجه الفتاة التي يتصور أنهما في علاقة إعجاب من بعيد وأراد إبهارها ومفاجاءتها، فرسم اللوحة بوجهها، ونوى تركها فوق زجاج سيارة صديقتها التي تقلها معها، استغرقت ستة أيام بلا نوم أو طعام لا شيء سوى أكواب من القهوة الجاهزة والشاي، لم يشعر بنعاس أو جوع، كلما تؤوه، نبهته ملامحها التي استغرقت ساعات طويلة من النحت على الورقة، وتخيلها بسلاسل من شعر يمر من جوار وجناتها، كل ما فعله الشامي لم يكن شيء حتى يخرجه من رسمه لها في كلتا الحالتين، أخذ من ملامحها وجعلها الفتاة الغريبة ورسمها أيَضًا كالفتاة المثيرة، ولم يكن صعب عليه، فلقد رسمها أول مرة رآها فيها وكم كانت ملفتة وغريبة عن عالمه وملامحها التي جمعت بين الطفولة والنضوج النسوي، وكم بعد أعوام مرت في قصتهما الصامتة من تحول وصل بها إلى أنها أمست الفتاة المثيرة المعروفة في الجامعة كلها..

ولم يكن منه سوى أنه شعر بالذنب المضني، أحس بأنه المسؤول الأول عن تلك النتيجة التي وصلت لها، وهو الذي لم يجد فيها غير غيرتها عليه، وانتقامه من شرودها عنه وتجنبها له في بعض الأحيان وثقلها عليه، فلجأ إلى لفت نظرها بقصفها الدائم بمضيه مع أجمل الفتيات وكثرتهن حوله، بغيابه الذي تكتشفه بالصدفة وتجده بالصدفة يسلم على زميلة وتظن أنه كان يخونها أسفل جدران مدرجات الجامعة، وتكتفي بقذف ضحكة عالية ساخرة في أذنه، وبرغم تجنيها عليه وإهمالها وهروبها من لحظة أول حديثهما، إلا أنه هو الذي شعر بالذنب الملح، وعكف على لوم نفسه كلما رآها على وضعها الأخير، حيث اختفى جمالها الخفي وماتت روحها الراقية وانتهى قوامها الهادئ_وكل شيء ذهب للصدر، فتصدرت المشهد وانتقمت منه أشد انتقام لكنها ضاعت في انتقامها هذا وصارت عاهرة الجامعة كما أطلق عليها زُمَلَائُه وهي تمر من أمامه متصورة أنها تَعبُر على قَلبُه..

لقد جعلتها تشعر بأنها كريهة وقبيحة؛ فأرادت أن تثبت لك العكس، قلت له ذلك، لم يكن ذنبك، هي التي تعاني من نقص حاد في الشخصية، من البداية كان لديها في رحمها عاهرة صغيرة وما إن جاء ميعاد الطلق انفلتت، ـ لم أتركه يلوم نفسه كثيرًا أمامي، فلقد كنت أغار منها ـ ربما، ومن طريقة سرده لقصتها، حتى لو كانت علاقة بعيدة من الزمن..

كل ذلك فهمه الشامي من نظرته على لمحات اللوحة، واعترف له بأنها برغم روعتها إلا أنها بدائية جدًا ومفضوحة؛ وبرغم أنك حاولت إبعاد ملامحها عن الوجهين حتى لا تتذكرها وبرغم أنك باعدت بين الشبهين إلا أنك في النهاية ياصديقي قد رسمتها..

وقلب اللوحة إلى وجهه ليريه الذي لم يرآه، لقد أخذت من ملامحها ورسمت أثنتين ولكن في النهاية هي واحدة فقط..

أصابه الإحباط في مقتل، لقد كانت درجة الشامي الصوتية مثل التي تسمعها في نهاية مقابلة العمل الفاشلة، وفي نهاية جملته صمت الشامي ثم قام ليضع اللوحة على لوح معلق وثبتها بمسامير صغيرة مخصصة، والتف حوله وقال؛ نحن نفتح الشركة في السادسة صباحًا.. متى تحب أن تأتي ؟! أرجو أن تكون هنا قبل فتح باب الشركة..

عاد مع الصباح في الخامسة والنصف جالسًا على الباب الأمامي للجاليري منتظرًا، لم يأتي أحد سوى عاملة، فتحت قفل الباب وتركته وراءها في تمام الساعة الثامنة، بعدها بلحظات حينما قام ليحاول منادتها ويسألها عن هذا التأخير، وُضِعَت يَدٌ على كَتِفُهُ فاستدار؟ـ وجده الشامي يتخطاه ويدخل فذهب وراءه، مترددًا في استفساره عن تأخره وأين باقي العاملين معه والذين رآهم بالأمس كخلية نحل، وعلى باب المكتب استدار وقد تغير وجهه، ووقف صامتًا بعدما ناد العاملة والتي أحضرت عدة نظافة مقش وجدول، وأشار لها بأن تريه ماذا عليه أن يفعل؟! ..

ودون نطق كلمة بسيطة أشارت إلى صالة شاسعة منظمة من مكينات خياطة وتفصيل وتطريز، تحت الواحدة منها كومة من أنواع عديدة وغريبة من الأقمشة، فهم أنه عليه تنظيف جميع القصاصات والعودة بالصالة كما كانت، هل هو اختبار؟! قد يكون، من المؤكد أنه لم يأتي بموهوب ليقوم بأعمال النظافة، قالها في نفسه وصمت بعدها طويلًا، وترك عينه تكشف أركان المكان وكم المجهود الذي يحتاجه هذا الصرح لتنظيفه بشكل يرضيه عنه، انهمك في التنظيف لدرجة أنه لم ينتبه حتى لصوت زحف خطواته خلفه، فقد أتم مايقرب من نصف الصالة واستغرق نصف ساعة حتى نبهه الشامي وبجواره العاملة؛ ميعاد العمل بعد وقت قليل حاول أن تكون منجز أكثر ..

أتقصد أن ميعاد العمل لم يبدأ بعد؟!؛ اندفع إليه حتى أنه وجه له رأس المقش فيما بدا أنه سيعتدي عليه ويدفعه من أمامه ويرحل، استوقفه الشامي بكلمته الصارمة؛ الاستيقاظ مبكرًا ضد وعي الفنان؛ المبدع يجب أن يصحوا متأخرًا ويكمل باقي ساعات يومه في إبداعه فقط..

ولماذا حضرت أنا من الفجر؟!؛ ولماذا أنا أنظف!!، أنت طلبت رسام وليس عامل نظافة، ألم تنتبه لأنني ارتدي سترة أشتريتها من مصروفي المدخر مخصوص لمقابلتك الأولى وقد شمرت قدم البنطال الفخم وأكمام القميص حتى أنظف؟!، ماذا تريد مني بالضبط؟!! ..

خرج دون إجابة وأعطى إشارة للعاملة بإعطاءه قماشة تنظيف ودون أن تنبت كلمة منها عملت على إحدى الميكنات ونظفتها تمامًا من الخيوط وتناثر القصاصات وزيت التشحيم، وتركته يأخذها من يدها، جلس في الجوار يزم ويوشك على البكاء، لم يعتاد فعل عمل لا يقتنع به أو غير راضي عنه، أخذه عقله بعيدًا عن مهمته، كلما مر الشامي يجده يجلس عاصي وينظر له في تحد، لم يعرف ما الذي دفعه للقيام من مكانه واستكمال العمل على أكمل وجه، أنهاه في تمام دخول المصممين، استغربوا من وجوده حتي الآن، بم يوحي أنهم اعتادوا على رؤية ذلك أو ذكرهم بأنفسهم، هذا الذي غرس فيه الحكمة التي لم تخرج صريحة من فم الشامي..

شهر كامل يأتي في الساعة الثامنة يحمل جروفه وجدوله وقماشته ومقشه ويدور في المكان على موسيقى باليه بحيرة البجع؛ تطلقها مكبرات صوت في المكان كله ما إن يفتح باب الجاليري، ثم يجلس في صالة الممر بين القاعات يشاهد العابرين والمنشغلين وأزيز العمل الدائر في تلك الخلية، تركه الشامي يمر في بقية اليوم حتى العاشرة مساء بين المكينات والتصميمات والرسامين والمخيطين والمساعدين والعارضات العاريات أو الكاسيات..

في نهاية تنظيف اليوم الأخير جاءه الشامي يحمل منه عدته، ويأمره بفرد بنطاله وقميصه، وحمل سترته فوق يده ولبس حذائه المنزوي عند المدخل، أعطاه نقود وقد طلب منه أن يحضر كل يوم بحلة مكتبية كاملة حتى رابطة العنق، التي أصر على اختلافها عن كل يوم..

سار وراءه حتى باب المكتب، واستدار الشامي وودعه، يمكنك الاستراحة اليوم وغدًا في نفس موعدك..

مرتدي السترة كاملة أيضًا؟!..

حرك رأسه بنعم ثم التف وأغلق الباب وراءه، وتركه ينظر لنفسه في انعكاس ظله على الباب، عقد الجارفت وارتدى الجاكت والحذاء وانطلق إلى المنزل لا يريد التفكر في شيء، ماذا سيحدث إذن؟!..

في ميعاده كالعادة وصل، فتحت العاملة الباب الزجاجي الكبير أمام وجهه ودلف، صحبته حتى باب المكتب الكبير الذي يقطنه الشامي، دخلت قبله، وتركته بالخارج يشد أكمام قميصه فوق يده لخارج السترة، ويربط على ياقة قميصة ورابطة العنق، خرجت وأشارت له بمصاحبتها، ووضعت في يده ذات المقش والجدول والجروف، وأدخلته صالة أكبر، منظمة من طاولات رسم كبيرة بأعداد تفوق المئة رسام، مصطفة بعشرة منضدات عرضية ومثلها طولية تقريبًا، يسلط على كل منضدة إضاءة مربعة منفصلة تحد الطاولة من عدة جوانب وفي وسطها كشاف كبير كاشف لأدق تفاصيل الورق، غير أن الزجاج الذي يحيط الحائط من أسفل السقف يسمح لضوء الشمس للدخول بحرية شاملة لكل القاعة..

الأرضية الخشبية مزروعة بقمامة من قشور أقلام الرصاص والألوان والورق المقوى المهمل، والأدوات الساقطة على الأرض والتي يراد لها العودة فوق المنضدة في مجراها المنحوت والمخصص لها، خلع السترة واندمج في ما اعتاده منذ شهر، شهر أخر وقد زاد وتأخر عليه الشامي، في تلك المرة ظن أنه يعرف متى سيفك سجنه، فأصابه الأمل وعد اللحظات حتى يصل لحريته، في تلك المرة ظل يعد اليوم بعد اليوم حتى يتم الشهر ولكنه لم ينتهي ولم يأتي أحد يخلعه من هذا العمل المقرف، فتنظيف قصاصات الأقمشة أفضل من غبار الفحم والرصاص ورائحتهم العبقة، في تلك الأيام الزيادة جاءه آخيرًا ولكنه ليطمئن على سيره في مساره الذي قرره له، مرت باقي الأيام حتى منتصف الشهر الثالث بثقل جم يحبس أنفاسه وروحه، لم يعد يحتمل التقليل منه أكثر وتهميشه واعتباره بلا قيمة ودون المستوى فقرر التنفيس والصراخ والاعتراض، لكنه لم يفعل شيء..

وما أن أنهى أخر جزء في القاعة في ذاك اليوم، حتى سمع سقفة من خلفه، لم يتعجل في النظر وتأنى حتى انتهت السقفة من تردد صداها في القاعة الفارغة إلا منه، حمل عدته ورماها بمعنى الكلمة على يد الشامي التي توًا عادت لمكانها بعد التسقيف، وانتظره في الخارج وهو يكمل هندمة سترته، ترك الشامي الأدوات واصطحبه إلى المكتب وهذه المرة أدخله قبل منه، دق جرس في طرف المكتب الخشبي ودلفت مساعدته، بالقطع وبالطبع لم يرى في مثل أناقتها من قبل، في رداءها المكتبي المكون من سترة مصممة بذكاء لها وتنورة قصيرة تبرز مفاتن قدمها، برغم أنها ليست بالجمال الذي تتوقعه في طلتها الأولى إلا أن ذكاءها وأناقتها جعلنها أجمل امرأة مرت فوق نن عينه، لم يتطلع إليها كثيرًا فهو كان يتكبر على إعطاء أي امرأة مهما كانت جميلة الإحساس بالانبهار بها، لماذا تشعر أنها مميزة ومن ثم ترتكب الخطيئة الكبرى وتتكبر مثل إبليس، لاحظ فيها أنه أختارها كسكرتيرته على عكس العارضات، فهي تحظى بمناطق ممتلئة وجسدها يرقى للمرأة العادية في نفور الفتاة المثيرة برغم طولها الفارع، على مدار الأيام لم يلاحظ تغير في تسريحة شعرها هي تعكفه وراء رأسها كذيل له وستراتها مقتربة من بعضها لكنها تغير كل يوم عطر..

في خضم سرحانه برونقها كان الشامي شرح لها وضعه القادم، فهممن نظرتها المنتظره له أنه لابد التحرك معها لا محالة، سار وراءها كصغير البط، محاولًا تحاشي النظر والحيد بعينه عن ظهرها الآخاذ والملتوي، ولكن أين يذهب؟! فإن نظر إلى أسفل وجد مفاتن قدمها تشع تألقًا ومثالية، وإن نظر إلى أعلى خطفه ذيل رأسها المتنسق بشدة متقنة، توقف عند تلك النقطة، شعرها هو ذات اللون والنسق الذي كانت تتميز به عروسة ذنبه القاضي والقاصي والقاسي، ذكره بشكل موحش ذيل شعرها بأيامه الأولى مع فتاة الجامعة الغيورة، هناك حينما رآها مختلفة عن عالمه المليء بالنساء، عن كل أحلامه وأمانيه، هي خرجت بحلم جديد لم يمر حتى في لاوعيه، ذلك عندما مرت فقط من جواره، كان يزهله ذيل رأسها هذا قبل ارتداءها الحجاب، وقبل التحول في السنة الآخيرة إلى ما وصلت إليه، إلى كبيرته اللوامة، توقفت فجأة السكرتيرة بطريقة توحي أنها تشعر بما يجري وراءها، لم تكن تعرف أنه غير كل الذين توقعت أنهم يركزون على ظهرها وينهلون منه حتى تنهل هي منهم وتستذلهم وراءها، وجدته توقف بعيدًا فاقد الوعي تمامًا في منطقة أخرى من الزمن، نبهته بطرقعة من أصابعها وأفرغت بصوتها الحاد الأنثوي ما سوف يفعله طوال المدة القادمة..

لم تكن سنته الثالثة في الجامعة تحتمل ضياع شهرًا أخر في الجلوس بالطرقة الواصلة بين كل الصالات، أمام غرفة تغير ملابس العارضات، حتى أنه لم يحظى في تلك الفترة بطلة من الكواليس على ما يجري في صالة العرض، كل ما شاهده هو مرور المصممين والعاملين والمساعدين والعارضات اللائي يغيرن ملابسهن ربما في الطرقة، تخلع العارضة بعض القطع أمامه فتكشف معظم مفاتنها وتكمل في غرفتها، تمر السكرتيرة لكي تلحظه وتلقي بعض

النكات عليه من باب السخرية المستفزة، حتى أنها رمته مرة؛ تتمنى بالطبع دخول غرفة تغيير الملابس كباقي الرجال...

على العكس أنا أتمنى الرحيل من أمامها لكني مربوط هنا، فكثرة النساء قد تعمي الرجل عن الجمال وقد تعمي القلب عن الحب..

قد..؟!

تشككت ودخلت إلى الممر الجانبي الملحق بكواليس المسرح، لتطل على تجهيز الحفلة الليلية لذاك اليوم، تمنى أن يطلبوا منه شيء ولو بسيط حتى يشارك فيها، إنها أكبر من كل التجهيزات التي رآها طوال تلك الفترة الجالسة الأطول في الانتظار والملل، أن تفعل شيء يضيع الوقت خير بكثير من الجلوس منتظرًا حتى ولو يمر عليك نساء عاريات، قرر من نفسه فتح الستار العازل بين المقر والمسرح، دخل يطل على التجهيزات الآخيرة، الكل مشغول بالفعل ولن يدري به أحد..

سافر بحرًا في انبهاره بما يحدث من الإخراج والإضاءة، وبالعارضات على مسار القطط، الـــ "CAT WALK" مزهلين هنا أكثر من هرولتهن وخلعهن ملابسهن في الممرات، الإضاءة تجعل الجميع رائعين تصبغهم بألوانها المشعة وتجسد كل تفصيلة بهم، الشامي وسكرتيرته والعاملين والمساعدين والمصممين والمخرجين الجميع يصيبه روعة من أناقة كل ما يحدث أمام عينه، لا يعرف كيف اختفى من أمام عينه وجاء جواره..

الفنان عاصي ومتمرد وفَضول، انتظرت منك كثيرًا التمرد والخروج عن المسار المحدد لك؛ جاء الشامي خلفه دون أي وعي منه، قد لاحظ وقوفه فترك ما يفعله وجاء ليضع أول قطعت مقص في قمشاته، أراده الانسياق وفي ذات الوقت يتمرد يظهر حسه وأسلوبه..

انسحب الشامي إلى الداخل فتبعه مريدًا لتوضيح له أنه مل تلك الفترة من الاختبار والإعداد، هو يشتهي التفاعل، ويرغب في التحرك فوق طريقه إلى تطوير موهبته، فتح باب المكتب ودخل وراءه يلاحقه ربما يتحدث معه هو أولًا ويغير نمطه، حينما جلس لحقه بقوله؛ لقد مللت وإن لم أفعل شيء غير الجلوس والتنظيف سأرحل، أنت تحتاجني أكثر من أي شيء آخر؛ ربما ستجد غيري كثير ولكن لن تجدني أنا..

أنظر- في تلك اللحظة سأقول لك ما تمنيت توصيله لك، وستصدقني القول؛ بدأ في سرد له الحكمة من تسليحه بالمقش بدلًا من القلم وبالجدول بدلًا من الورقة وبالقماشة المنظفة بديلًا عن قماشة التفصيل..

هل علمت نوع القماشة التي كنت تمسك بها طوال شهرين للتنظيف؟!، هل فكرت في معرفة ذلك؟!، لم يتصور أنه سيسأله عن تلك التفاصيل، أين سيعمل هو ؟!، هل هذه شركة أزياء أم فاترينة لجهاز مخابراتي؟!، وبدأ يتشكك فعلًا، أتكون واجهة لجهاز سري وأرادوا تجهيزه وتدريبه ووضعه تحت ضغط حتى يختبروه كما يحدث في الأفلام والمسلسلات؛ نعم، لكني لا أعرف أسماء الأقمشة، هي بدت خليط من القطن والكت..

قاطعه بأشارة كفه؛ سأعرض عليك مجموعة من الأقمشة واحدة فقط هي النصف الآخر من قماشة التنظيف التي كنت تحملها طوال تلك المدة، وبالفعل أخرج كمن جهز هذا الاختبار عدة أقمشة من منضدة ملحقة بالحائط، عليها بعض التبلوهات لأشهر تصاميمه، طلب منه إغماض عينه والنظر إلى الأعلى، وتركه يلمس كل قطعة حتى يشعر بالتطابق، حاول إبداء البساطة في استخراج القطعة المأخوذة عن التي اصطحبته الفترة الماضية، لكن الأمر لم يكن سهلًا أبدًا، لم

يكن بتلك السهولة التي بدت عليه، كان صعبًا ومبرجلًا للغاية، كالفرق بين العلم والجهل تمامًا، حتى أن جلده لم يمكنه من الحاسة البسيطة التي عند أي إنسان، من كثر التمسك بأقلام الرصاص والفحم والتظيل على الورق بأنامل الأصابع فقد فقدت حسها وتجلدت الطبقات وماتت الخلايا في مكانها، حتى وإن بدت طبيعية، لم تكن صحيحة وعفية، أشياء كثيرة تبدو طبيعية لكنها في الحقيقة هي مؤسفة، ذيل جدله مع الشامي بتلك الجملة بعدما تعجب منه وأوضح له أنه يرآها ناعمة وطبيعية..

حسنًا في نهاية الأمر قد أجاد اختيار القطعة، انبهر به وإن لم يبدو عليه كذلك؛ كنت أريد لك الاستبيان بعينك من كل قطعة في المكان، أن تلمس كل إبرة وكل خيط، التحدث مع الآلات، كنت أحتاج لرؤية نفسك فيها والمرور بين المعدات والرسومات كتفحص وجهك كل يوم، هل لاحظتبأن الفنانون قد يتركون رسوماتهم وتصميماتهم ويرحلون..

لاحظت وتعجبت...

هذا كان من أجلك؛ كل شيء رأيته منذ دخولك تلك الحياة هو من أجلك، كل شيء ترك أو أعطي لك هو من أجل التقدم في طريقك وأنلا تعود كما كنت كسابق عهدك، و أن لا تتركها وترحل..

خلع سترته لأول مرة أمامه وهنا اكتشف القمصان العجيبة المشجرة والملحقة بتصميمات وأقمشة حسبها للنساء فقط؛ قد بقى لديك أمرًا واحد حتى تختبر به قماشتك جيدًا وتضيف لها، أسبوع أخر لن تفعل سوى المرور على كل الغرف والصالات، تمر كمراقب كمقيم كناقد وتسجل كل شيء في ورقة وتعيد صياغته ونقده، والأمر الذي يشترك معك في الرآين أو أكثر، أنقله في ورقه أخرى وأنتقل إلى الذي يليه..

الحركة أفضل بكثير من السكون، السكون هو الذي بدأ الطاقة ولكن الحركة هي الحياة، الاكتشاف والفضول دفعوه ليحب تلك الفترة، النقد والنظر بين كل فراغ وكتابة رأيه، الجلوس بين منضدات الرسم، دخول غرفة تبديل الملابس في أي وقت ومشاهدة تحضير العارضات وجلوسهن أمام المرايات المضيئة بشدة، وجههن قبل وبعد التبرج، وعينهن التي تلمع في الإضاءة العاكسة من المصابيح الصغيرة المتألقة حول المرايا، حضور الحفلات من أي مكان يريده، الكواليس والمقاعد الخلفية والزوايا، المرتب الذي يعطيه له الشامي بالدولار الأمريكي مكنه من إرتداء كل حفلة عرض أسبوعية سترة مختلفة يشتريها من منافذ الشامي أو المحلات الكبرى التي تشتري تصميماته، في البداية حاول تقليده حتى بدأ الشامي في النظر له بعتاب منتظرًا رؤية أسلوبه الخاص، فراجع نفسه ووجد أنه قد يبدو أسلوبه القديم وحبه لإرتداء الأزياء العادية والكلاسيكية تمًامًا هنا بين كل هذه المواكبة والاختلاف أسلوب جديد مختلف عن ما حوله..

وهذا كله جعله محب لحياته وفخورًا بذاته، برغم الشعور الذي يصيبه بأنه لا يفعل شيء حقيقي لا هو في دراسته ولا هو في موهبته، بعد حفلة تلك الليلة بعد مرور أكثر من ثلاثة شهور، أثنى الشامي على بدلته البيضاء ذات الحواد السوداء المزجرشة؛ من صباح غد ستكون "لبيس" الفتيات، ستساعدك بيسان مديرة المساعدين حاول الاستفادة منها أكثر مما تستطيع ..

بيسان سيدة في الأربعين، لن ترى أي شيء فيها يدل على أنها تعمل في جاليري أزياء وهي المتسبب الأساسي في تألق العارضات والعروض والجاليري كله، ربما يساعدها جمالها الآخاذ في أن ترتدي أي شيء فترآها العين مناسبة لأي شيء، عيناها الحادتين وشعرها المشدود للوراء بنعومة ملتوية ووجها المثلث وأنفها المدبب، قد لا يليقان بستراتها القديمة شكلًا

وموضوعًا، لكن ما من أحد يرآها وهي تتحدث مع كل فتاة بلغتها أو لهجتها سيقف عاجزًا عن الحركة وفاتح فاهه، العارضات من إيطاليا وفرنسا والبرازيل والولايات المتحدة، وأسبانيا وأستراليا وروسيا وبيلاروسا،

واحدة فقط عربية..

تلك السيدة المطلقة الحاصلة على دكتورآه في تصميم الأزياء من جامعة أوربية، تجدها هنا كأم العروس مع كل عارضة، وفي الصباح باغتته بسؤالها؛ هل هو حقًا الذي أرسله لها الشاميّ!، اصطحبته لمكتبها وأخرجت بعض الفطار والكعكات الطازجة من حقيبة يدها وأعدت كوبين قهوة بالحليب ومن ثم أرغمته على الفطار معها، لم تتحدث كثيرًا ولم تجبرهعلى خلع سترته من عدمه حتى هو فعلها من نفسه، واستعد بعد الفطار للالتصاق بها كظلها كما وصفت له بكفيها، هو مدرك بعض الشيء لدورها والذي تلامسه في فترة المراقبة، في اليوم الثالث كلفته بأن يفعل مثلها، لم تخبره بأن لا ينظر إلى عورات النساء، بل أرته بعينه سرعة العمل الذي لن يجعله يلتفت سوى لما في يده من أزياء حساسة جدًا، بدا الأمر صعب للغاية التركيز كرجل في تفاصيل وتصاميم دقيقة وأجساد النساء من حولك تمر لا تسترها أي قطعة قماش، النهود والمحارم والظهور والأقدام المتناسقة وكل شيء جميل في المرأة قد تجده في تلك الحجرة الشاسعة، يمررن من جواره وربما يصطدمن به ويداعبنه ويمزحن مع خجله وارتباكه، لم تكن هذه هي المرة الأولى لمقاومته لجسد المرأة..

فصديق له كان يملك وكر الشيطان؛ كما أسموه وقتها؛ شقة ممتدة تركها له والديه اللذان يعملان في دول الخليج، في هذا الوقر، الغير وقور تجد كل الملهيات، الألعاب الإلكترونية، جهاز حاسب آلي بشاشة كبيرة، على مخزن معلوماته كبير المساحة- أفلام إباحية وأفلام سينمائية غير مقطوعة المشاهد -، الغرف بها فتيات من المفترض أنهن جئن للمذاكرة ولكن في ليلته الأولى اكتشف أن بعض بنات الدفعة والزميلات الآئي يقفن معهن في الصباح بحجاب أو دون حجاب، في الليل يأتين يذاكرن المنهج عاريات، ويستعدن للأمتحانات بممارسة الحب والرزيلة، في إحدى الليالي خرجت فتاة داومت على مصاحبته في أروقة الجامعة على وجه الصداقة والسرد، ذهب يجلس مع أصدقاءه في الوكر وهو لم يكن يشاهد ولا يمارس، كل ما في الأمر أحب جهاز "البلاستيشن" الخارق في ألعابه المحاكية للواقعية، المصارعة وكرة القدم، كان يستمع كل ليلة ولم يتأثر بصرخات الفتيات والنساء حيث أنه أصحابه لم يكتفين بالعذروات من زميلاتهم وإنما استعانوا ببعض السيدات الكبيرات، في ذات ليلة سمع أن أم زميل لهم بالداخل، هو لم يصدق إلا عندما رآها تخرج وتستدعي أحد منهم ليكمل معها..

في ليلة أخرى، خرجت زميلته عارية تمامًا وتوقفت عن هرولتها الشقية من الغرفة عندما رأته وابتسمت وذهبت إليه تغريه وتمسك يديه تشده ليدخل معها ودفعه أصدقاءه حتى الذي كان بالداخل معها، رفض وعاد لمكانه ليكمل المباراة، لم يمهله الفزع من أن يأتي ذات ليلة ويجدها في أحد الغرف، سواء قبل التحول أو بعده وهذا الخوف هو الذي دفعه للقدوم كل ليلة ليطمئن أنها لم تصل إلى وكر الشيطان هذا، مثله كان قاسم شخص طيب، كان يشبه في براءته التي افتقدها آنذاك، بعدما جاءت السنة الثانية بكل ما هو لم يريده في حياته، لقد كان على بعد خطوات من أن يمارس الرزيلة مع زميلته التي تشهد أروقة الجامعة على براءة علاقتهما، لكن بئر السر عظيم وبئر سر المرأة أعمق عظمة..

انتقل من مساعدة بيسان إلى الجلوس كل يوم بجوار أحد المصممين يختار منضدة على ألا يكرر جلوسه مع ذات المصمم، كل يوم جديد بمصمم جديد، وألا يتركه حتى يفرغ من تصميمه أو تنتهي ساعات العمل، يطل عليه الشامي كل صباح ويعود ساعة بعد ساعة، في بعض الأيام

كان يقبض عليه متلبس بجوار إحدى المصممات، وقد كرر هذا كثيرًا حتى كاد العدد ينتهي لكنه يعود لها مع كل تصميم تبدأ فيه وتنهيه..

ابتسم في اليوم الأخير وناداه؛ كما توقعت تمامًا، لقد أعجبتك؛هل هو أسلوبها أم في طريقة تصميماتها..

ما الفرق؟!!..

لو استفدت حقًا من هذا الإطلاع على جل ما رأيته لعرفت الإجابة، جعله قوله هذا يصمت كثيرًا، هل يفكر في الإجابة أم يتذكر كل الأيام الماضية ليستشف الإجابة؛ يعجبني تفكيرها فهو يصنع الإثنين..

ابتسم لذكاء إجابته ثم نفهاها بإشاحة رأسه؛ ياصديقي إن لم تحدد ما الذي يعجبك فيها فلن تصل إلى شيء فيها..

حسنًا؛ صمت وجال في رأسه مدورًا إياها في الجحرة ثم رفع يده وقال؛ أسلوبها، لأنه..

أسكته ثم أشار له بالخروج، لم يشعر بأي كسف وقتها بل انصاع لرغبته فقط، بيد أنه حين خرج من الباب، بدأ يسأل نفسه وكله خوف من أنه بعد كل ذلك يرفد من العمل مع هذا الرجل صعب المراس، ولم يفهم إلى أين يذهب هل يكمل عمل أم يكمل طريقه إلى الخارج!!، في طريق الحيرة قابل بعض العارضات اللآتي مزحن معه، ـ وطلبن منه مصاحبتهما الليلة في الخروج، عاد على الفور للشامي واستأذنه، فتعجب من فعلته وعلى العكس أعجبه تصرفه هذا، وأذن له بعدما نوه عليه؛ هذا أيضًا من مسؤوليات مهنتك معي ولكن كنت أنتظر أن تنهي تدريبك، أنت عملت بجد وبجهد كبير الفترة الماضية أخرج ونفس عن نفسك..هذا حقك..

أخذنه الفتيات لمكان هادئ، يقدم المأكولات الخفيفة والمشوربات الصحية، على عكس ما توقع فقد ظن أنهن سيصطحبنه إلى ملهى ليلي مثلًا، لم يكن هذا هو الملفت الوحيد له في تلك الخروجة، بل تصرفاتهن مع بعضهن الغير منطقية، نظراتهن الخفية، تطلعهن لبعضهن بتفحص أكثر من نظرات الرجال، إنها ليست نظرة اشتهاء، إنها نظرة على كل بصيلة شعر- كيف الفتاة الأخرى وصلت لتلك النعومة؟!، وهذا الصفاء في لون الجلد واختفاء تشققاته وبروز قشعريرته، تتطلع إلى إبطها و إلى مثنى قدمها وكعبها، وإلى تحت عيناها وعيناها ورسمتها، إلى لون الخلايا تحت جسدها، أطراف ملابسها ولون حذائها ونوعه وموديله، لن يسألن بعضهن من أين جئتي به أو بكم حصلتي عليه؟!، مع أنه سؤال مشروع، واحدة فقط هي التي تصالحت مع نفسها وأبدت إعجابها بحذاء الأخرى وسألتها الأسئلة المشروعة وفسرت أنها تريد الحصول على واحد مثله، لا يفرق كثيرًا جنسية تلك الفتاة لأن ليس هناك فروق كثيرة بين النساء في العالم، هي ترجع إلى الشخصية وتعاملها الإيجابي مع ضميرها وروحها وتربيتها لنفسها..

أجابني مدافعًا بذلك مفسرًا لي حينما سألته عن جنسية تلك الفتاة واسمها؟!، الفتاة الوحيدة العربية؛ واتهمني أنني مثل بقية النساء ومثل تلكم العارضات لا أهتم بالمضمون الحقيقي وأبحث عن التفاصيل الغير مفيدة بالمرة، مثلهن تركن العرض الراقص والموسيقى المغذية للروح والطعام الشهي الخفيف والعصائر الأنيقة، وتحاكت كل واحدة منهن عن حكاية صيدها لهذا الثوب أو قماشته وبحثها لمدة قد تصل لشهر عن هذا الحذاء وهو كرجل نظر لهذا الكنز الذي استغرق شهرًا مثلا في البحث، وتوقع كونه حذاء عروسة بحر مرصع أو من عجائب ملك سليمان، لكنه عادي بدرجة صادمة كأنها حصلت عليه من إسكافي لا من ماركة عالمية كذا & كذا ..

أنا لست عدو النساء، عدو النساء الحقيقي هو من أخترع الكعب العالي، الذي يؤلمهن ويقيد حريتهن ـ وجعلهن لا يفكرن إلا في ارتداءه أم تغييره، الخروج به أو من غيره، ووضع حذاء بديل في حقيبة يدها، عدو النساء هو من جعلك تترددين ألف مرة قبل الخروج من منزلك، لا الذي يفكر في حمايتك من نفسك، أقامني بيديه وهو يقولها، وقد كنت أتحضر في شقتي المستقلة ذات ليلة لحفلة قد دعي فيها، وسقطت وأنا اسمع منه تلك القصة وأنا أرتدي حزاء الكعب العالي الذي أهداه منذ تلك اللحظة بقليل فقط، فقد أحضره معه..

السيدات يعتقدن أن لا حق لأخريات في ارتداء مثلهن وأنه لا يليق على واحدة ما يليق على الأخرى، تعجب من أنه؛ لما لا تحدث تلك النظرات الناقدة في غرفة الملابس، وكل واحدة عارية أمام الأخرى.. ربما يحدث، هو أعتقد أنه لا يحدث لأن كل موجود مشغول في أمره، مشغولات في ظهورهن وتألقهن، يطمحن في أن يكن أفضل الحضور والعارضين، لا مثل الباقيات، لأن الأمر ليس منافسة أما في الحياة الخارجية ـ الحياة هي أخطر وأكبر منافسة للنساء ـ، إن الحياة بالنسبة للنساء صراعات وسباقات ليس للرجال أي دور في تطورها، لكن من بعيد هم المحركين الأساسين، محركين الموضة هم الرجال، في المبلس والمأكل، المصممين رجال والطباخين رجال، أصحاب شركات التبرج وكريمات وسوائل وصبغات الشعر وقلم رسم العين وقلم رسم الشفاه رجال، وأصحاب مواقع التواصل الاجتماعي رجال، ربما هن استطعن تسخير الرجال ومالهم لخدمتهن لعمل لهن ما يزيدهن جمال وانتشار، تظل الأنثى سر غامض قادرة على تغيير مجريات الأمور وتحويل الذكر من فارس مقاتل إلى مصفف يجدل لها شعرها ويضع لها لون الأظافر..

ولأنها أيضًا داخل العرض هي أداة ولا تملك ما تلبسه أو تضعه ولا اختيار لها في هيئتها وظهورها وهذا هو عملها، وربما لأنهن أيضًا يتنافسن فيما يظهر لعيونهن فقط، أما ما بطن فكله متشابه لون الصدور أو حتى شكل الفرج أو نسق البطن والسرة، كل هذا خفي فلماذا ستحقدن على بعضهن فيه، هذا لا يخص إلا الرجال، فلماذا ستهتم به إلا حينما يأتي وقته، حقًا الرجال ليسوا في مقدمة اهتمامات المرأة، المرأة لا تهتم إلا بنفسها فقط..

لا.. لن أعقب عن هذا الجزء، حتى لو كان فيه شيء من الحقيقة، هو هنا يتكلم عن نوعية معينة من النساء، وعن هذه النظرة قد دهمني بكلماته مرة وأكد أكثر من مرة على أنه يحكي لي هذه القصة ليس ليعرفني أنه عاش بين نساء عارضات جميلات فترة من عمره ولا أنه يفهم في أمور النساء الخاصة وأزياءهن وأذواقهن،هو سرد هذه القصة بنواحي وأشكال كثيرة لكي يؤكد على أن تلك الفئة من النساء، تَسعى إلى تقليدهن أغلب النساء، وهذا يسبب تعاسة أكثر النساء، الوصول لمثل هذا الجسد أو تلك الحياة التي يعتقدن أنها ممتعة وسهلة وأزياء وخروجات وحرية ـ لكن لا يعرفن أنه عمل مثل أي عمل ـ جهد مضني لا تقدر عليه أي فتاة، أن تلبس في وقت أسرع من الفتاة العادية وتغير وترتدي زي أخر، وتعيش تحت الأضواء والإحراج والضغط والنقد والمراقبة والأكل المعين وطريقة العيش المحدودة والتواجد في مواعيد مقيتة والعمل ساعات أكثر من أي عمل آخر، والاهتمام بالبشرة بشكل مرضي ووزن الجسم وشكل منحنايته، إن كل فتاة هي عارضة في حياتها العادية، بجسدها ولبسها وأكلها وقلبها العاديين، هي لا تختلف عن العارضة في شيء بل إنها حرة عنها..

أجابه الشامي عن سبب اختيار العارضات بهذا الجسد النحيل، حين سأله وهو متجوارًا معه على طرف مسار العرض ذات ليلة تجهيزية، فأجابه؛ كلما كانت العارضة أنحف كانت أوفر في المقاسات والأقمشة، رفع تعجبه حاجبيه فأستكمل الشامي يهز رأسه، نعم، ويكون عليها التصميم ميتًا غير مناسب لجسدها بل هو قد يكون مناسب لجسد امرأة أخرى، فالمرأة لا تحب الأخرى أن تبدو أفضل منها ولكن بحمقاتهن جعلن العارضات هن الشكل المثالي للمرأة

وحبسن في رؤسهن تلك الصورة مع أنه كل امرأة هي مثالية لو ارتدت ما يليق بها، بوضوح إن كانت العارضة تتمتع بجسد جميل فستشكك الزبونة في أن جسدها ليس مثالي لهذا التصميم كالعارضة ولن يليق بها ونخسرها..

رفع نظارته العجيبة واعتدل في جملته وأشار إلى عارضة؛ لكن البرزيليات جسدهن برغم أنه متناسق جدًا إلا أنه مليء من الجوانب، تنحى الشامي برأسه ونظر إلى كشافات الإضاءة التي تتحرك ليطمئن على تواجدها في مكانها الصحيح، وهبط من فوق الممر وعاد للنظر له؛ للأسف لا تستطيع البرزيلية التخلص من جوانبها والوصول إلى الرفع المطلوب مثل الفتاة العربية ..

فهبط جواره؛ ولهذا تجعلهن يرتدين العباءات والتصميمات العربية والهندية، وهبط بجواره يحيه على عظمة استغلاله لموارده، حيث أن هن أكثر نساء الأرض شبهًا بالبسطاء العرب والهنود وأرخص العارضات أجرًا هن البرازيليات أنذاك..

أما عن سرده لي لحكايات ومغامرات الماضي، من حين إلى آخر طلبت منه أن يخف من تفاصيلها بعض الشيء، هل يحب هو أن أسرد له مغامراتي في الماضي بهذا التفصيل الممل؟!، هل يحب الرجل أن تحكي المرأة له ماضيها؟! كما يفعل هو، هل سيحب الرجل إمرأة لها ماضي أصلًا؟! لو وجد رجل مخلص سيوجد رجل يهتم بماضي المرأة، الرجال يسردن قصصهن كنوع من الفخر أمام النساء، لكن يرفضن أن يحكين النساء قصصهن أو يكن لهن ماضي مشابه لماضيهم..

داهمني بمنطقه كالعادة، لأن الرجال ليسوا كالنساء والنساء لسن مثل الرجال، لأن الرجال هم الفاعلين في العلاقة والمرأة المفعول به، لأن الرجال واضحين أما النساء يحتاجن خبرة عملية كبيرة لفهم جزء بسيط فيهن، ولأن المرأة تحب الرجل الذي له خبرة وماضي ومحاط بالنساء، أما الرجال يشتهون أن تكون المرأة هي قطفتهم الأولى، لم تعرف الحب قبله ولابعده، يكون هو رجلها الوحيد في هذا العالم، إن النساء هن الذين أفسدن الرجال، المرأة تجد الرجل منجذب لها وحدها وحيد فريد لا تعطيه الفرصة حتى بل إنها تتركه وتذهب للذي يخدعها ويغرقها في بحر الغدر، المرأة تحب الذي لديه القدرة في خداعها والضحك عليها وخطف قلبها وإبهارها وسحرها بألاعيبة، ثم تعود جارة ذيل فستانها المهترء عليها من الخيبة وتتعقد وتقفل الباب في وجه الرجل الصالح الذي يريد مساعدتها حقًا، كل امرأة دخلت حياتي أحببتها، حتى أثبتت أنها لا تستحق هذا الحب، بحماقتها؛ برحيلها، أو بتصرفتها التي جعلتني أكرها وأبتعد عنها..

هكذا كانت هي، أحبتني نعم ولكن لم تكن تنتبه لوجودي إلا عندما أصاحب غيرها أمام عينها، تهرب وتبكي وتعود عنيدة أكثر من ذي قبل، العند هو الذي ضيع النساء وجعلن حمقوات بدرجة ممتازة، كنت أجلس أمامها ليس معي سوى نظارتي، لم تصاحبني مؤنثة ولم تعرفني سوى الشجرة التي جلست تحتها والسيجارة التي لجأت إليها بعد عدة شهور وأنا أجلس أمامها وحيدًا كلما كانت هي موجودة في الجامعة، حتى مللت، عامًا من الوحدة إلا من صورتها أمامي تجيء وتذهب بحرية وأنا سجينها، لم تهتم ولم تقدر ولم تعطي أي شيء، ولا يظهر عليها كل هذا إلا عندما تجد ضرتها معي، فتاة يشهد العالم كله بجمالها، لو وضعا بجوار بعضهن لبان الفرق شاسع في الجمال لحساب ضرتها التي كانت أكثر فتاة تغار منها لهذا، ليس لجمالها الفاتن فقط بل لأنها أصبحت تلازمني أكثر منها، تأخذني منها إلى عالمها وصحباتها الجميلات الآخريات، كانت تغار من ضياعي من يديها..

ثم واجهني، فهو يحدثني كلما هاجم المرأة بجانبه وينظر بعيدًا عني احترامًا لي؛ لا تفتحي هذا الأمر مرة أخرى، أنا رجل جيد وأنت ترين كيف أعاملك، فلا تستفذيني ثم تعودي لتقولي أنت مثل باقي الرجال، تلك الجملة التي تكررت أكثر من لحظات تبادلنا الحب، كان يخشى أن أرآه مثل باقي الرجال أكثر من اكتشافه أنني مثل كباقي النساء، وكلما يحتدم الحديث يخرج يدخن في الخارج، حتى لا اتضايق من تدخينه داخل المكان الذي أجلس فيه وهكذا دوما فعل إن جمعه مكان واحد بنساء، وحتى لا أطلب منه تدخين سيجارة معه، برغم أنه يؤمن بأنه مدام يدخن الرجل من حق المرأة أن تدخن فالسيجارة مؤنثة والسرطان ذكر، ولتذهب المرأة إلى الجحيم إذا أرادت أن تنتحر مثلما ينتحر الرجل..

تكررت تلك الليالي حتى مل منها، ودخل على الشامي فاتحًا بابه بخفة فزعته من مصافحته عدة مجلات لأخر الصيحات؛ لن استطيع الاستمرار بمصاحبة النساء كل ليلة، أعلم أنه حلم لأي رجل، أما أنا فلا، يكفي علي امرأة واحدة..

من ضمن قواعد اللعبة مع الشامي، أن لا يقعا أثنان في حب بعضهما داخل المكان؛ لا رجل وامرأة وحتى لا امرأة مع امرأة ولا رجل ورجل، والعلاقة الممنوعة تتضمن الصداقة أيضًا، هو يريد العمل فقط، حتى كل فرد في الشركة يخرج منفردًا لا أحد يصطحب أحد ولا يودعه، الحديث داخل المكان في العمل لا ثرثرة ولا شكوى، حتى في وقت الراحة وهو وقت مستقطع وكبير، لأن رأي الإدارة في وقت الراحة الكبير، هو أنه يجب على الفنان الراحة التامة النفسية والعصبية والعضلية ولا يضغط كثيرًا و بشرط أيضًا ينهي العمل في الوقت المحدد، إما أن تشرب أو تأكل أو تشاهد وتسمع ما يعطيك إلهامًا أو يرقي روحك، ممنوع التفرج على عروض أخرى أو تصميمات ورسومات وأعمال أحد غيرك..

في عام الفان وسبعة لم يكن أي من وسائل ومواقع التواصل موجودة ومنتشرة بالشكل الجنوني الذي هو عليه الآن، البريد الإلكتروني فحسب، وهذا لا يسمح إلا بالحديث من المنزل بعد العمل، أُكتُشِف الكثير من العلاقات وطُرِدُوا، وقَبلَهَا أُفسِدت علاقات أخرى عروض وأعمال وتصميمات، في بداية عمل الشامي اشترط أن تكون العارضة أو المصممة لديها قدرة على درء مشاعرها ومشاكلها وانفعالاتها خارج ملامحها عند وقت الاستعراض، بعد مشاكل عدَّة حدثت من سقوط عارضات وبكاء وصرخات وهجوم على عارضة من حبيبها وأشكال عديدة من المفاجاءات التي أفسدت عروض مهمة..

أنا أحاول الوصول للعالمية، ومشاكل الأخرين تعطلني، فيجب أن أكون أنا الأخرين والأخرين أنا، النساء هن أصل المشكلات والعمل مع النساء هو ثاني أسوء علاقة بعد الارتباط بهن؛ مجموعة من التعليمات الصارمة، قد تظهر الشامي لا يؤمن بالحب، وليس في حياته أي امرأة، أو تتعجب أن يكون مثلا عدو للنساء بينما عمله وعالمه كله من النساء؛ لكن الأمر أعمق بكثير؛ على حد ما وصف لي وجعلني أنتظر أخر القصة..

بعد تلك الفترة بدأ يترقى في الشركة؛ من مساعد لبيسان إلى نظيرها في عرض أسبوعي وهي مساعدته، والذي يليه هي مسوؤلة الأزياء الأولى وهو يساعدها، ثم مصمم بين المصممين وله طاولة مخصصة في حجرة صرير الأقلام كما كان يسميها، لأنك حين تدخل تجد صوت احتكاك القلم بالورقة حاد جدًا ومع ما يقرب من مئة مصمم لا يقبل من تصميماتهم لنفس الفكرة أو الزي إلا خمسة مثلًا يختار منهم ثلاث موديلات نهائية أو ترفض كلها، منافسة عتيدة مهلكة، حتى ترقى وأصبح مكان الشامي كمشرف على التصميمات يوجه المصممين إلى تعليمات وتوجيهات الشامي قبل أن يشت الفنان أو المصممة عن ما هو مراد..

ووصل إلى أنه بات الرجل الثاني المسؤول مع الشامي عن كل شيء، يترك له الإدارة ثم يسافر إلى لبنان وفرنسا يحضر ما لم يستطع عليه وهو وحده بعدما تركه الشريك، الذي لم يحدثه عنه حتى مع قربهما العملي، لم يحدثه عن حياته الشخصية أو علاقاته، كل كلامه في العمل فقط والمتعة، حتى هو لم يمزح معه مرة ويسأله عن لماذا لا يقيم علاقات مع كل تلك النساء في حياته؟!، هل جزعت من كثرة الحلويات حولك، طباخ السم يتذوقه، وأنت طباخ ماهر للسم في العسل الذي تقدمه للرجال في صورة نساء أنيقات، من السهل على المرأة أن تكون حلوة ولكن من الصعب أن تصير جميلة ـ هذا هو كلامك..

كانت مزحة لم تتكرر لا هي ولا غيرها، مظهره الذكوري لا يعطيك شك في أنه جنس ثالث مثلا؛ أي ليس له في حب النساء، تصرفاته معه وتعليماته وحزنه ومعاناته وعصبيته وصوته الجهور لا يدل أن هذا الرجل شاذ مثلًا؛ هكذا بان واضحا لي؛ ليس كل رجل وحيد شاذ، ربما هو يحب الوحدة ولا يحب كثرة النساء أو قلبه مغلق على امرأة، بعيدة أو متوفاه، أو راحلة عن القصة، أو كرهته في الصنف كله وهن كثيرات، وراء كل رجل حزين امرأة، الأنثى عدوة الأنس، فالوحدة خير لك من مرافقة امرأة، جملته التي نقلها على لسان الشامي واستخدمها أمامي كثيرًا، حتى أنه ذات مرة قالها في الحفل الذي كنا مدعوان فيه وانسكب من يده الكأس وسقط المشروب على بذلته فقمت سريعًا بجلب محرم سفرة من على الطاولة ونظفت له ما أوقعه، فما كان من سيدة أنيقة وقفت في دائرة الحديث وهي زوجة صديقه كاتب الروايات الرومانسية الذي يحدثه؛ أريت هذه هي الأنثى التي ترفض جوارها..

فرد مازحًا؛ استطيع القيام بذلك لنفسي..

فأعادت زوجة الكاتب مزحته؛ ولكن ليس بكل هذا الحنان.. ثم رتبت على كتفي ..

في ثالث يوم من أول أسبوع وثق فيه الشامي، وترك له الإدارة وسافر يحضر بينالي كبير يقام في فرنسا، دخلت امرأة بوجه صارم، أنيقة حد المثالية، شعرها يهرب منها من نعومة الاهتمام به، لكنها تسيطر عليه، سنها لا تستطيع استنباطه لكنها ناضجة، حتى بطنها الصغير البارز من قميصها المحكومداخل تنطورتها القصيرة فوق الركبة توضح أنها تزوجت أو تخطت الثلاثين، فور دخولها والذي صادف وجوده بالساحة أمام الممر الموصل للمكتب انتبه على صوتها الآمر والمنادي على الشامي، قاطعها؛ بالقطع أنت تعرفين أين أنت، ومن تناسقك مع ملابسك قد تكونين تعملين في مجالنا فعذرًا ورجاء اخفضي صوتك وتفضلي معي في المكتب أنا بديله، وقدم يده للمصافحة، فصفعته بنظرتها لضئالته أمام طولها الفارع الذي يزيده عشرة سنتيمترات كعبها العالي فصارت عملاقة تدهس من يقف أمامها، وأمام ثباته وسكون كل من حوله من العاملين ورضوخهم لشخصه، انطويت في اتجاه إشارة يده..

الحسناء هي زوجة الشامي، امرأة عنيدة وقوية لا تغار ولا تتغير ضعيفة أمام الثناء لكنها لا تظهر ذلك، عصبية وهذا يجعلها أكثر جمالًا ولكنها لا تحتمل، لا تسمع أحد وتلقي الاتهامات وترى نفسها هي الأصح دائمًا حتى لو لم يكن كلامها منطقي ولا تعترف إن غلبها المنطق، بعد قليل شاهد المنتظرين خلف الباب لتعليماته أو لمعرفة ماذا يجري خلف الباب، تلك المرأة ترحل بعنف وهزيمة. تلك التي دوما تأتي وتفتعل المشاكل مع زوجها وترحل والتي أفسدت له كثير من العروض، ولكي تفسد عمله كله فتحت محلات منافسة لمنافذه في نفس المكان وبعض المناطق في مقابلته تمامًا، كل هذا وعلى حد وصف العاملين الذين دخلوا على مديرهم يطمئنون عليه بعد تلك المباراة الندية، قد وصلت لهذا الحقد، لأن زوجها نجح في مجاله وأرادت أن تشاركه نجاحه، فتصاميمه تجعلها النساء موضة وهي لا، لأن أعماله انتشرت وخرجت عن المحلية وهي لا، برغم أنه كثيرًا ما كان يفضلها على نفسه، يقيم لها عروض وحدها، يفتح لها المنافذ على تصميماتها فقط، وأكثر ما وصل إليه أنه أوقف خط تصاميمه

وأشغل المصممين تحت أوامرها وأحلامها، مرارًا اشتكوا من أسلوبها وبعيدًا عن ذلك اشتكوا من تصميماتها المبهمة والغير مفهومة والغير مناسبة لما تطلبه سواء أنواع الأقمشة أو نسق التفصيل، وحاول غزير المرات التوضيح لها أنها ليست مصممة، هي كانت أنجح عارضة قبل الحادثة التي وقعت لها لعصبيتها وقيادتها السيارة بعنف وسرعة في بلد قد يحدث لك حادث وأنت واقف وليس تسير ببطئ حتى، نصحها بالمساعدة في مسؤولية تلبيس الأزياء، تعمل مع د. بيسان أو تساعدها أو تقوم بدلا منها حتى وهي كانت موافقة على تركها للمكان والعمل في قسم أو نشاط أخر، إلا أنها أصرت وهي لم تفك معظم الجبس من يديها، ولم تبدأ في العلاج الطبيعي،أن تتخذ كرسي الشريك في الإدارة وتقيم عروضها الخاصة وتخرجها،كادت التسبب في خسارته لعلاقات جمة فعلها بعمره كله حتى الخمسة وأربعين..

أتصل يومها بالشامي وطمئنه وخشي معرفته عن ما حدث في الصباح منها فأخبره هكذا برر له، فما كان من الشامي إلا أن استأذانه في غلق الهاتف، وغاب الأسبوعين المقررين للبينالِ عن الاتصال والاطمئنان على سير العمل بالشركة، فلما عاد طلبه في اجتماع مغلق، هو نفسه أراده بشدة لأن امتحانات نصف العام للسنة الرابعة قد حلت، ويريد أجازة ليستعد ويستعيد كل مافاته، فأوقفه عن الحديث حتى يعرف ما جاء لطلبه منه، وهو أثناء ما كان هناك في فرنسا استطاع أن يسوق أعماله، وقد تحدث مع مصممة تعرف عليها أرادت مشاركته لشركتها والعمل معها هو وفريقه، وبالحظ السعيد له هي فقدت جزء كبير من مُصَمِمِيهَا والعاملين معها، وهو يريده في ملازمته ويكون مديره التنفيذي هناك، لأنه سيترك البلد ويقفل هذا الفرع تمامًا..

أهذا القرار والانتقال المفاجئ بسببها..

لا أحد سيخبرك لأن لا أحد يعرف ولم أشوه صورتها أمام أحد لا بالداخل ولا في السوق بل قامت هي بذلك، إنها سعت لتدميري وقلدت نماذجي وفتحت منافذ منافسة حتى أنها أتت بمصممين ماهرين ليغيروا في تصميماتي ويعدلوا فيها وتتوه بين كل الأزياء فلاتظهر، حتى الجاكت الجينز القصير الذي أتينا به من أوروبا وجعلناه أنا وأنت يلبس على العباءات ويطول قليلًا حتى يناسب الفتاة الشرقية وفتحنا له معصمه المثلث، قلدته ولعبت به حتى ساد في السوق نماذج قبيحة منه وعباءات فاسدة وفساتين مهلهلة الشكل..

تركه تلك الليلة وهو يحتله سؤال حائر وحيد؛ كيف سيعرض الأمر على والديه؛ ويقول لهما أنه سيترك الجامعة في أخر سنة ويعمل بالخارج داخل حياة مختلفة تمامًا، إنهما حتى لا يعرفون شيء عن عمله هذا ولا عن راتبه الذي بالدولار، وملابسه العديدة التي يشتريها كل أسبوع من تصميمات الشامي يضعها في شقة الوكر عند صديقه حتى لا يلاحظا عليه شيء سوى التأخير الذي هو آفة كل شاب في سنه..

انتهي من جامعتك وأعمل ما شئت..

جاءت إجابة والده نموذجية، وهكذا تنتهي الحياة والقصص الناجحة بالإجابات النموذجية، فقد رحل الشامي وتركه وراءه يكمل دراسته وينصاع لرغبة والديه، ونسى تَرك له أي وسيلة تواصل يستطيع إيجاده مرة أخرى من خلالها بعد الانتهاء من دراسته، بعدها بسنوات رآه مرارًا على قنوات الموضة، يتحدث عن أعماله في بينالية فرنسا..

وهو يجلس أمام التلفاز بلا عمل..

" 3~ نقصان العقل ..العاطفة "

بعد سنة التخرج بذل مجهودًا كبيرًا في البحث عن فرصة عمل، ذهب لمؤسسات كبيرة محترمة للتدريب أو العمل كمبتدئ، فيجدهن يفضلن الفتيات الخريجات الأنيقات، حتى المحلات التجارية تعلق دومًا مطلوب فتاة حسناء المظهر، إذا أردت الحصول على عمل كفتى سيطلب منك خبرات لا يصنعها إلا الخريجين منذ الأعوام أما المرأة تجد لها فرصة دون حتى يوم واحد خبرة، ويقولون أنه مجتمع ذكوري!، إنه حقًا مجتمع ذكوري يحب النساء أكثر من أي شيء، مجتمع ذكوري مُنَسّوَن..

بعد عام تغيرت أحوال البلاد وظهرت حركات مناهضة ومطالبة بتحسين الأوضاع، انتشرت في البلدان المجاورة وبلدان بعيدة مظاهرات عدة تعترض على النظم الحاكمة والسياسات المباشرة، فيما بدا أن قريبًا سوف ينال البلد نصيبها من هذه الحركات الثورية، ولم يمر العام التالي إلا وفي غرته اندلعت موجات عارمة من المظاهرات، مطلع ثورة تجوب الشوارع واعتراضات في كل الأنحاء، انتقامات ونيران وسقوط أحزاب، وهروب قوات الأمن وعمت الفوضى بيد من لاتعرف!؟..

هدئت وسكنت الأوضاع بعدها لكن الأعمال لم تستمر، إلا عمل واحد يحتاج لخبرة قد اكتسبها مع مرور أيام ضمن أعوام، في صغره حرص زوج خالته على مصاحبته لجلسات تصوير للطبيعة، والرجوع به لمعمل التحميض ومتابعته جيدًا وهو يضع الفيلم في مكبر وطباعته تحت الضوء الأحمر والظلام الدامس إلا من كشفات إضاءة طفيفة لها موجة لا تفسد الصور،

كان لها تأثير كبيرًا تلك الذكريات في حبه للتصوير وشراءه كاميرا عادية تعمل كهاتف خلوي وتتصل بجهاز الحاسب الآلي وتخرج الصور على شاشته، صال وجال بها بين المعارض وبين الفنانين التشكليين وأعياد الميلاد، وبدأ العمل يدر عليه بعض المال ومكنه من حمل عدسات أكبر، إلى انتشار الأحداث في البلاد واندلاع المظاهرة الكبيرة التي استمرت ثمانية عشر يومًا..

ما حدث يومها هو أول حركة جريئة من شباب فلسطيني يأتي يتظاهر أمام السفارة، متعاونًا مع بعض من شباب المتضامنين مع القضية والعاملين عليها والقوميين، ماحدث يومها هو من ضمن أفعال لم يكن يتجرأ عليها أحد في زمن ما قبل الثورة، لقد صارت أشياء كثيرة حق مكتسب لم تكن مسموح التفكير فيها حتى إلا بعد هذا التاريخ، وعلى النقيض هو يتذكر أيام لم يرضى عنها كثيرًا لأنها أمست نواة للفوضى، حين استسهل البعض أفعال دون وعي مدرك للشكل الذي سيرآه المجتمع المقفول، واستغلال البعض الأخر لتشويه أي مطلب إنساني عادي، كتلك الحركات النسائية التي أرادت فتح على حد تعبيره "البزيء" قدم المجتمع على مصارعيه، وتحارب في كل الجهات دون وعي، فقد تجدهن يدثَن أنفسهن في أي مظاهرة يحملن شعار مؤنث مع القضية والمطلب المطروح في التظاهرة، فتشعر أنه مخنث.. على حد تعبيره..

مطالب غريبة عن مجتمع يلهث بلسانه العطش ليملئ أفواه راعيته المساكين، من تلك الأفواه مرأة، ربما كان بجهلها لحقها سعادة كما تقول المقولة "في بعض الجهل سعادة"، بذلك ذيل رأيه، لا من باب الرضوخ والاستكانة، ولكن تأريق الناس في هدوئهم أحيانًا وفتح أعينهم على الحرية دون بديل للعيشة التي يحيونها هو عذاب مضني وحرب ودمار، وضحايا سيخلفها هذا النضال في وقت ليس وقته مطلقًا ولا يحتمل أي ضحايا وتشتيت عن الحرية الأكبر التي ستلد كل الحريات..

بينما هن لا يصغين لأحد ويستغلن بعض الأحداث لدس وإدخال مطالب وحريات شعوب أقرت كل الحقوق والقوانين وحددت شكل المواطن وارتاحت وفعلت ذلك بعد عقود من انهياراتها وثوراتها، بينما هن أردن زرع مطالب وحصد حقوق بين يوم وليلة، والوطن مايزال يكافح من أجل حل أمور أكبر، الفتاة الكبرى ماتزال تتعافى من الاغتصاب طوال سنوات العهد المنصرم..

كلامه أتي على قلبي فصمت..

في تلك الساعة التي احتشد فيها الجمع في يوم إحياء ذكرى المقاومة، من بينه خرجت امرأة تقص شعرها بشكل وكأنها خرجت من معتقلات المحتل، تناشد وتنادي وتجوب بين الزاعقين على زجاج النوافذ الفارغة، أخرج الأمن العاملون بالسفارة وتركوها خاوية كعمارة في مدينة حديثة البناء، جنين على اسم المدينة الفلسطينية، تهتف بأسمها في بكاءيه هزيلة، أخرج عدسته وصار يلتقط لها كل لفته منها حتى لمحته، هرولت عليه فشك أنها ستأتيه تفضحه بين الجموع، وتعنفهم عليه، بينما على العكس جلست وتوسلت إليه ليصورها وينشر قصة ابنتها جنين التي في الناحية الأخرى من الحدود لا تستطيع العبور لها أو تأتي البنت مع والدها، بعدما شاعت الفوضى أمام باب الصحراء الفاصلة، وعمليات التهريب والترهيب، أغلق الباب على الناحيتين، لا رحيل ولا عودة، تحدثت بكل ما فيها من دموع، أنهى التصوير، ورأت فيه الصديق الذي سيسمعها حتى النهاية، ودعته ليوم معها في الإستديو حيث تغني أغنيتها الوحيدة لطفلتها الصغيرة، لربما تسمعها أو تشاهد ابنتها مقطعها المصور لوجه أمها، فتعرف أنها تفكر فيها وتوحشتها..

هذه المرة الأولى التي وضعت في يده قيود، ويمثل أمام المجتمع كمقبوض عليه متهم، هذه هي المرة الأولى التي تدفعه حماقة امرأة لدخول الحجز..

توالت الأيام بصداقة تشتد بعدما رأته وهو يبيت معها في الاستوديو،وعلى المقعد المواجه يقوم من النوم يطمئن عليها ويغطيها من البرد الذي يغزو الليل الدافئ، العمل على الأغنية لم يكن ينتهي وطال حتى السهر والدجى، ما بين نسيان الكلمات أو التوتر و الدموع التي تغطي مكبر الصوت..

أتتها الفكرة تشدها من رأسها وترنحها عن التعقل، ستذهب لمبنى جامعة الدول العربية. ستطالب بحقها في عبور الفاصل وستجد من يساعدها، ستستنجد بأي مسؤول تجده فلابد أن هناك من يسمعها، حتى لو كان الأمين العام شخصيا؛ ستقابله..

" إن كنت خائف من تلك الخطوة لست مضطر للولوج معي لهذا الخطر"..

" بالعكس "..

ولعب الحظ بالنرد، وإنقلب المعكب الأول للذهرعلى رقم وجه سعيد، فيومها اجتمع سفراء الدول يناقشون ما يحدث على الساحة، على مستوى ما يحدث بالدول من مظاهرات وعلى مستوى الحدود قفلها من فتحها، هكذا قال موظف الاستقبال محذرا لها وهي تستأذنه في طلبها..

لم يفهم دق قلبه، هل أنه فيه من نبض قلبه المتوجس أم القوة!!، إلا حينما دلف جسده إلى زاوية الشارع الشاهق فيه المبنى القزم، ووقفتهما أمام الأمن المندهش من شجاعتهما في تجاوز الحرس الحذرين بجوار صف السيارات الدبلوماسية،الذي رأى الدموع المنسدلة والمتجمدة بفعل ليالي باردة قضتها تلك الكلمات في عينها محبوسة. وما صدقت أن حانت اللحظة لتروي قصتها وتجد من يسمعها لعله ينهيها..

حاول موظف الاستقبال تصنع الصبر ليواجه إلحاحها الجاهل بالأُمور القنصلية والاستراتيجات الدبلوماسية، هو يحاول كسب الوقت حتى ينتهي دون صوت عالي أو فشل عملي يلقى عليه، هو يعلم وهي لا تعلم أن ما تطلبه ليس مقررًا، وخصوصًا في يوم كهذا..

بينما أنقلب مكعب الزهر الآخر على رقم وجه تعيس، وعلى صوتها مع إطالة تعزيراته الغير مجدية معها، صوتها رج المكان في أنحاءه الفارغة وصالت وجالت تنادي هنا وهناك، بشكل هدد بفعل قد يعم الفوضى، وتشويه نظامهم الصارم أمام الزوار، في مرور أحد السفراء حاول تهدأتها وسماع مطلبها، تحدث في هدوء وعيناها لم تنزل من عينيه ولا من فوق جبهة حارسه الشخصي الصلعاء العريضة، جاءت إجابته غير كافية بنسبة لها هو لم يقل غير أنه سينظر ماذا يستطيع أن يفعل، ويبحث الأمر مع السفير الفلسطيني، هنا دوت في وجهه وخانتها العاطفة وألغت العقل تمامًا كما وصف الموقف وعَنونه، كَمِثل حين تغضب النساء وتترك في حقيبتها العقل، وتجعل العاطفة تتحدث بكل غباء فيخرج الكلام غير مقنع مستفز ومنهزم..

تركهما السفير وذهب عنهما إلى حيث الاجتماع العام، جرى هو وراءه يعتذر له على مابدر، " معالي السفير.. معالي السفير.."

قفز أمامه على السلم بشكل يقلق ولكن همه كان اللحاق به مهما كلف الأمر، وحتى يبدو أمامها بمظهر أنه لم يخذلها وتركها تناضل وحدها، فحال الحرس الشخصي والحرس الواقف على السلم ومنعه، واستمر في الحول بين وبين السفير كأنه إرهابي محتمل، حين استطاع

الحديث واستدار له السفير مستمعًا، أستأذنه في تنفيذ وعده ما لم يغضبه ما حدث، وبرر فعلتها بأنها امرأة ضعيفة التفكير وخائفة، وقلبها موجوع وبعيدة عن ابنتها، فلا يأخذهما على محمل القلق منهما، وترجاه كثيرًا لأنه يعلم ماذا سوف ينتهي به هذا الشغب في مؤسسة حساسة كمثل التي يجلسان على أريكتها أمام سلمها العالي، ينتظران مصير غير معلوم، لقد تحفظ عليهما الأمن، وجرت اتصالات كثيرة؛ حاول هو التصنت عليها ليفهم ما يدور، كلما تحدث مع أمن الاستقبال أوضح أنه يحاول القيام بما عليه، ذات مرة أخذ أذنه وقال له فيما أشبه بالرجاء؛ خذها وأرحل فورًا..

لم تتحرك ولم تريد حتى إنقاذ الموقف وتهرب قبل حدوث شيء لهما، اتهمته بالجبن،أحتلها البكاء والعند، الصوت العالي والفضيحة وكشف كل الخطط بالصياح الذي جلب الجميع من مكاتبهم وأثار ذعرهم، ولم تفت الدقائق إلا وقد حضر رجل عريض يحمل جهاز لا سلكي، نداه وهدده بأنهما إن لم يرحلا سيتصالان بالقسم، أخبرها وليته ما فعل، صاحت كأنثى قطار، أنه لا يهمها أي شيء ولن ترحل وستجلب حقها، تجمع الموظفون والإدرايون والحراس السفراء والضيوف والمارون من الناس، تجمع الجمع والجميع، ولم تجمع نفسها ولم يحجمها أحد كأنها في كابوس، وطلب منها الرجل في حدة بطاقتها الشخصية لوحت بها في وجهه ورمتها دون أن تأبى بأي خوف..

لم تهدأ إلا مع حضور الشرطة، حرص السفير على تعامل الشرطة معهما بكل هدوء، ركبوا ال" البوكس" من الخلف، وسرت عربة الشرطة أمامهما وخلفهما مدرعة صغيرة، نظر لها بقصر نظر وأشاح بوجهه في اتجاه الهواء القادم من باب البوكس المفتوح أجلا، النافذة المفتوحة التي تدل لك على أنك داخلها فقط ولم تعد حرًا، مقبوض عليك أسير مصير لا تعلمه، ووضعا في غرفة الانتظار، وهي باب حديدي كبير يشبه بوابات البيوت القديمة الكبيرة، يقفله من الخارج مزلاق بحجم ذراع رجل، وبالداخل رجل نائم يختفي وراء غطاء مهترء يستره على الأقل..

في ساعات الانتظار أمام حارس الاستقبال حاول الإتصال بصديق له محامي، الهاتف مفصول في غير وقته فتمضيته يومين بالخارج بعيد عن شاحن هاتفه المخصوص له قد فصل طاقته في أحلك الأوقات لحاجته له، هاتفه المحمول كان يتميز بأنه إن فصل بعض الشيء يشحن نفسه شرطة واحدة قد تصلح لعمل مكالمة لثواني وهذا كان من ستر الرب عليه، واكتمل ستره بأن صديقه رد من المرة الأولى وهو من الأشخاص الذين يردون من أول رنة، أخبر صديقه بملخص وسأل الموظف إلى أي قسم سيرحلان فأخبره بالقسم المجاور للمنطقة، وحرص صديقه على طمئنته بأنه سيكون بجواره وسيحضر على الفور..

أتصلت هي الأخرى بصديق ذا منصب مهم أهتم بقضيتها وحاول مساعدتها ولما علم جاء على الفور وحرص على مقابلة رئيس القسم ومطالبته بالوقوف بجوارهما، لم تبد الساعات كأنها طويلة لأنها بالفعل كانت كذلك، هكذا أحس بدقة قلبه مع كل ثانية تمر، التوتر يصيبه بالغثيان والشعور بالتبول، نادى على العسكري بالخارج بدا متعاطفًا معهما، أخرجه مرتابًا بعد محاولات من الاستعطاف منه، أشار له على باب مهمل مكتوب عليه الحمام، ومن الداخل مكتوب عليه أفظع جمل إباحية وخارجة عن الأخلاق قد رآها، لم ينتبه في البداية لبحر البول تحته والقاعدة الأرضية للكنيف المسدودة بأكبر كم من قطع البراز البشرية الذي تشكل لوحة مقرفة وسريالية على أرضية المرحاض، عاد له وسأله عن واحد أخر، رده بعنف من فرط قلقه، ((هنوديك واحد خمس نجوم يعني))، وأراد دفعه فحاش يده؛ أنتظر أنتظر لم انتهي..

ذهب مرغمًا مذلولًا وعندما فتح الباب مرة أخرى، رأى مصيره، شاهد صور تترامى في رأسه عن وضع وجهه في قعر هذه البحيرة من الفضلات، وضربه وسقوطه على ظهره فوق البراز،

عيشته التي ستستمر بدخول المرحاض بالأذن وهو الذي مأساته أن لا يجد حمام في الوقت المناسب، تذكر كل تلك المرات التي نزل فيها من بيته ولم يدخل المرحاض وندم كثيرًا وأصابه ألم رهيب في معدته وإسهال وانتفاخ في مثانته وذكريات مؤلمة عن أزمته مع مواعيد خروج فضلاته منه، إنها أزمة في حياته لم تستطع أمه على حلها في صغره ودوما كانت تلومه، لقد تذكر أيضًا هذا وسمع صوتها وهي تصرخ عليه وسأل نفسه ماذا سيحدث لها لوعلمت أو رأته في هذا الوضع؟!، كيف سيصل إليها الخبروسيصل بها إلى أين وصحتها تتدهور يومًا عن يوم؟!..

خرج للعسكري المنتظر في صبر ملتهب، أدخله وأغلق عليه بحرص حتى لا يرآه أحد، جلس جوارها وسمعها تتحدث مع أحد، الشخص النائم استيقظ من حركة فتح وغلق الباب الحديدي ذا الصرير والدوي المعدني كصوت زنزانات السجون التي تشاهد في الأفلام، كيف تسجن امرأة مع رجلان؟!، وكأن الشاب الأخر سمع سؤاله، هذه غرفة انتظار ليست حبس، يجتمع فيها من ينتظر مصيرهم ومن معهم من يهتم لأمرهم وله أهمية عند القسم، وسطة بمعنى أصح، لهجته الشامية نبهته، فردت هي أنه فلسطيني، وقبض عليه في مظاهرة ومازالوا محتارين في أمره، مر الوقت بين المزح والحكايات، سمع دق ونداء لاسمه على الباب، أصداقاءه قدموا وطمئنوه أنهم لن يرحلوا إلا بعد معرفة مصيره وتخفيف الأمر عليه، أحضروا له بعض الطعام والعصائر، لم يكن قد ذاق إلا الهواء منذ صباح اليوم السابق، القلق أنساه كل شيء إلا التفكير في مصيره المنتهي، وصلة واحدة هونت عليه، إنني يا الله لم أفعل شيء فظيع حتى ينتهي مصيري هكذا، وإني أثق أنك ستخرجني من كل هذا، وأنني رضيت بما قسمته إن كان حكمك هو هذا المصير ..

غاب صديقه المحامي وعاد وقد عرف تفاصيل الموضوع، وما هو متوقع الحدوث له، ستُعرض أنت وهي غدًا على النيابة العامة وسيُحدد مصيركما، في تلك الجملة أتى صديقها يؤكد هذا المصير، ويطمئنها أنه لن يتركها، وجاء بعده صديقها صاحب الإستديو الطيب الذي لم يتركهما وبكاهما كثيرًا..

ذهب الأصدقاء وبقت الجدران، وعاد التوتر في الليل يدفعه للتبول، سأله أصدقاءه قبل الرحيل عن أي شيء يريده فأستأذنهم أن يحننوا قلب الحارس عليه ليدخله الحمام حين يأتيه التحذير، فطمئنوه أنهم قاموا بالاتفاق معه على مراعاتهما، وسيسمع كل كلامه، رحل الحارس المتعاطف وجاء أخر، أخرجه لربما بوصيه من زميله، لكنه في المرة الثانية تملل ولم يجد إلا أن يخبره بأنه مريض، فأخرجه على عينه واصطحبه في يده هذه المرة وفتح باب الحمام أمامه وظل مفتوحًا عليه، تبول وخرج ودفع الحارس في يده زجاجة بلاستيكة حتى إن أراد مره أخرى يفعلها فيها، استغرب كثيرًا من أين يأتي له كل هذا الماء وهو الذي لم يتذوقه إلا قليلًا، غم الليل ورحل الجميع ونام الحراس، دق كثيرًا على الباب لم يسمعه أو سمعوه ولم يجيبوه، لم يجد سوى الزجاجة البلاستيكية، نظر لها في أسف، هي نائمة أو تبدو كذلك، وقف في زاوية من المكان التي كانت تحتلها شجرة بلاستيكية في أصرية كبيرة، لربما كانت من أحد مكاتب البهوات وغُضب عليها، لم تكفي الزجاجة وأكمل بروي الشجرة البلاستيكية وهو يبكي على ما يفعله وما حدث له، وعلى اضطراره للتبول بهذا الشكل وتلك الحبسة وخلفه امرأة قد تصحوا وتجده أمامها يفعل ذلك في تذلل بغيض، بالفعل استدار ووجدها تنظر عليه نظرة جامدة لا معنى لها ولم يستشف منها سوى أنه جلس على طرف الفراش الذي تنام عليه يسند ظهره لينام، حيث لم يكن سوى فراشين واحد عليه الشاب الشامي والأخر هي عليه وقد ضحى من أجلها لتنام هي، وقد ضحى من أجلها كثيرًا..

في الصباح كان الصياح عاليًا، والقسم على أشده، أخرجوه وضموه في صفوف المتهمين الراحلين إلى العرض على النيابة، لم يتخيل يومًا وقوفه بين من يشاهدهم في التلفاز في أفلام الحركة والقبض والسجون، أنماط بشرية اهترئت وأشكال لن تخطر على بال من حاول التخيل بعمق، لاحظ أن هناك فرق بين المعاملة معه وبين المساجين الأخرين حتى أنه لم يطلب منه أحد القيام أو الجلوس أو الوقوف احترامًا للآمين باشا المسؤول عن تحضيرهم، والذي أجله لنهاية الفيش والتشبيه، والوضع في القيود، أختار له طالب هادئ جاء في مظاهرة مناهضة للجامعة اشتبكت مع الصف التدريسي وقبض عليه بالخطأ، وقفا صفًا في امتداد ساحة القسم الأمامية، الذي هو قصرصغير قديم أو مصلحة حكومية أثرية منذ مئة عام مثلا على طراز ملكي، امتدا الصفين أمام بعضهما السيدات والرجال، وقد تلاقت عيناهما بعد ساعتين من الترهيب والترغيب، وكل الأسى على وجهها والشعور بالذنب، ابتسم في وجهها وقطع الابتسامة قائد القسم ناظرًا له بخبث وتهديد، رحل الصف الرجالي أولًا، ومن ثم جاءت النساء في أثره، وقد شاهدها في يدها القيد مع نسويات غريبة الطبع والشكل وأخريات دون نساء ليل وأخريات فتيات شكلهن محترمات للغاية، وفي الخارج وقف الأصدقاء ينتظرون رؤيتهما، بين بكاء صديقها صاحب الإستديو وتهوين أصدقاءه عليهما صعدا السلم الحديدي إلى الصندوق الكبير لسيارة الترحيل..

وتحركت السيارتان وحولهما سيارات الشرطة تعوي وتفسح الطريق، نظر في الوجوه ووجدها مختلفة تمامًا ليس كباقي البشر الذي قد لا تفسر الفرق بينهما، نظر إلى رجل كبير وابنه يجلسان في الركن البعيد، متحاشين التعامل مع أحد، بينما على الباب وقفا من هم أشد غلظة ووحشية، في الصعود طلب أحدهما أن يبدل قيده فتبدل الطالب الهادئ مع وجه أجنبي لكنه من البلده وقد عاش كثيرًا بالخارج، شعره الطويل وصفرته لم تمحي أثر الحبس عليه، والندوب التي توزعت حتى يرآها فقط المدقق لا الناظر العابر، وبينما الجميع يشكوا من الجو انتهز هذا الشريك في القيد الفرصة من عرق يده وانتزعه من يده مما أخافه ونصحه بأن يضعه حتى لا يجلب لهما المشاكل، أسكته بحركة الصمت على الشفاه وهو يبتسم، لكنه جعل البعض ينتبه؛هناك من تعجب لمشاهدته الأمر أول مرة وأخرين هددوه بأنهم سيخبرون الآمين، هؤلاء هم زملاءه في الزنزانة المسلطين على بعضهم حتى يكسبون ود المسؤول..

ترجلوا من السيارة وكان المتخلص من قيده قد أعاده ببثاق من فمه، وجلس المتهمين على الأرض انتظارًا لمجيئ وكيل النيابة، وانتزعت القيود فقط لوضعهم ثلاثات في قيد واحد، ساعة مرت ولم يتحرك أحد من مكانه وبدأ الشاي يمر والماء يفرز أخر لعاب ما قبل العطش والجفاف، ترجى المحامي صديقه الحارس لأخذ صديقهم بعيدًا وإطعامه وإشاربه فأذن فقط بالماء والشاي في مكانه،وحدث ما خافه صديقه، لقد طمع المجاورين وبدأوا يترجوه في ماء وشاي هما الأخرين، وأخذا منه الماء والشاي من يده بنظرة عينهما المتلصصة، واستاذنوا المحامي عمل إتصال من هاتفه، أضطر صديقه للانصياع لهما، ورمي فمه في أذنه وقال إنه يفعل هذا من أجل أن لا يزعجوه حتى يمتلكهما في صفه، واستكمل في أمور القضية؛ إنني توصلت معها ومع محاميها أن تقول أنك لا تعرفها وأنك كنت واقف بالخارج وقد وجدتها تشتكي وتبكي وحاولت مساعدتها وأن نيتك حسنة ليس إلا، ولم تخططا للاقتحام، وأخبره أنها وافقت على ذلك وأنها تقول له أيضًا أخرج نفسك وهي سوف تعرف كيف تنجو؟!، النساء لهن أمورهن الخاصة وتصرفتهن هكذا أرسلت له حتى تنقذه من ضياع مستقبله، لم يرضى خوفًا من تحملها القضية وحدها، أرسله لها يخبرها ذلك، عكست منطقه وأوضحت أنه بذلك سيزيد المسؤولية ويضعهما في اتهام اقتحام المؤسسة والتظاهر بداخلها، وقصد وترصد عمل فوضى أمام الضيوف الدبلوماسيين، أما مع الحجة الأخرى فهو لم يكن سوى عابر سبيل وفاعل خير..

اطمئن له شريك القيد، وسأله عن قصته، وبدأ هو من نفسه يسرد له ما جاءه به هنا، قبض عليه يهرب مُرجُوانًا، على حدود المكسيك في طيارته الخاصة،لقد عشتُ حياة مرفهة جدًا في البلاد وخارجها وحوله أصدقاء ومعارف كثيرة، أما الأن فهو يشحذ كوب الشاي والسيجارة، لقد كان أول ما حبس وقبل أن تنتهي أمواله يسمونه الإمبراطور، وأمسك بنطاله المهلهل ورداءه ذا غطاء الرأس وقال هذا من الولايات المتحدة وهذا ماركة ألمانية، أما الأن فلم يعد يزروني أحد ولا حتى أقاربي ومحامي قضيتي، بعدما استنفذ مالي ولم يعد يهتم بالحضور وراءي في العرض المؤجل على ذمم التحقيقات..

بدأت التحقيقات وفك واحدًا خلف الأخر، حتى جاء دوره ونودي اسمه، فعاد إليه التوتر في رعشة الأعصاب بعدما زال عنه صعوبة الانتظار بالحكى من الزملاء، وطلب من الحارس وأصدقاءه الدخول للحمام، فطالبوه بالتحمل، وقفا هو وهي على باب النيابة فترة حكيت له فيها كيفما تعامل معها وتعاطف معها النساء في السيارة وأنها لديها موهبة في استعطاف النسوان حولها، وقد وجدت المتعلمات والجاهلات ولكن كلهن نساء في الأزمة، الجميعات تدعمن بعضهن إلا التي تغار من أخرى، فأكبر عدوة حقيقية للمرأة، امرأة تغار منها ولا تستطيع أن تكون مثلها، وهذا النوع وجدته أيضًا في وسط التشابه الذي يصنعه الضيق، حدثته بطبيعة مفضفضة وهي لم تعرف أن أكبر مشكلة له الأنقد سببتها امرأة، وكلما اقترب من امرأة حدثت له مشكلة وكانت هذه أبرز مشكلة نبهته..

تعاون وكيل النيابة وتعاطف مع موقفة الرجولي، وساعده أيضًا صديقه المحامي بإخراج بطاقة تقول أنه منضم لأحد الكيانات الشبابية الثورية التي هدفها مساعدة الناس، حتى أنه من أسباب الإفراج عنه أنه من شباب الثورة، حينما كانت تلك الكلمة بريئة نظيفة نبوية..

جاء القرار مفرجًا من القسم، من الصباح حتى المساء تمرر الإجراءات، بعد غروب الضوء الأصفر وشروق الضوء الأسود والأبيض، خرج يتنفس هواء الأشجار المحيطة والشارع ويضحك في وجه كل حرس يقابله لقد أصبحت حرًا الأن..

حتى أنه نسى أمرها خلفه، فعاد وتذكر فرآها تخرج هي الأخرى خلفه وجرى عليها فيما بدا أنه مشهد فراق يدوربأحد الأفلام السينما القديمة، افترقت يديهما والمعاني في عينهما لا تُكتب، آي معنى هو قد خرج من عيناهما!!، النجاة من مشكلة محتمة أم الوقوع والتسبب فيها، الفرحة بالحرية أم اللوم على الحماقة وقلة التعقل والهروب وقت ما لزم الأمر!!، هل سيعرفان بعضهما البعض مرة أخرى، هل سيسمح لنفسه أن يرى من كادت أن تنهى حياته قبل أن تبدأ؟!.. لا تفسير لضمير الإنسان ولا هو نفسه يعرف، ولا تفسير لأفعال المرأة ولا هي نفسها، حتى أنك تشك أن للمرأة ضمير، قالها وتركني ورحل إلى الحديقة ينتظر ليل اليومالقادم الذي سأحضر فيه يأتي حتى يضرب الرصاصة الرابعة..

"4~ الخيانة"

هذه المرة أمسك يدي وسعى في تعليمي ضرب الرصاص على العروسة الرابعة، كان أكثر ما يربطني به أنه رجل، ليس وسيم جدًا رجل عادي الملامح ولكنها ملامح رجل، وأنه أيضًا والأهم؛ أنه هو في عداء شديد مع النساء آي أنه لن يخونني مع واحدة آخرى، حتى أنه ذكر لي مرة من خلف مكتبه، بأنه لا يبتلع ملامح وتعبيرات وجه وأصوات النساء، يعتبرها تخفي شيء ما وراءها من كيد أو تدبير حمقوي متسرسب من بين أروقة الحقائق، مما يجعل كل النساء في عينه متشابهات، أليس هذا مطمئن لمرأة بجوار رجل كهذا، رجل يرى كل النساء متشابهات هذا يجعل أي امرأة بجواره تشعر بالأمان..

لم يكن أبدًا مثل باقي الرجال، يحاول دائمًا أن يكون الرجل الذي تتمناه آي امرأة، برغم أنه لا يسعى لجذب اهتمامهن أو إثارتهن، يعجبني فيه هذا كثيرًا، تلك المرأة التي لا تختاره وتذهب للرجل الآخر؛ الذي بدوره يفلقها جرحًا وهما، وهذه من حظه دائمًا أن تأتيه المفلوقة والمعقدة من الحب، كما سمعت منه في حكاياته التي يسليني بها أثناء لياليا، الخيانة لم تكن في طبعه ولم يسرد لي يومًا قصصًا متقاطعة أو متحدة في مكان وزمان واحد، أكد لي أكثر من مرة أنه برغم تعدد علاقاته إلا أنه لم يجمع في عمره بين اثنتين، يكفيه امرأة واحدة، دومًا يكررها على مسامعي حتى اطمئن من تلك النقطة التي تؤرق النساء، امرأة واحدة تكفي، في العمر أو في العام أو في القصة..

وأن لم تخنه امرأة من قبل، تتركه نعم لكن ليس من أجل رجل آخر، بل لأسباب أتفه من ذلك، على قدر وصفه، وأنه لم يعيب حتى تلك المرأة التي مع رجل آخر وتتقرب منه، وهذا حدث له كثير، صديقات أصدقاءه، أو متزوجات، أو التي تكون في علاقة ومع ذلك تحاول معه..

فما تكون الخيانة عندك إذن؟!،

أجابني وهو يحتضنني بشدة بدافع أن لا أفلت المسدس من يدي وأن لا أحيد عن الهدف كان حريصًا جدا أن أمزق الورقة المكتوب عليها خيانة فوق عروسة النشان؛ الخيانة ياحبيبتي ليست إن يحب الحبيب شخصًا أخر، بل أن يكون المحب مازال في الحب ويذهب لآخر، الخيانة هي أن تُمسي أسرار وملامح وتعاملات ومعاملات الأثنين الخاصة بين العامة والدائرة حولهما، الخيانة هي أن المتحبان لا يغلقا على نفسهما العلاقة، وهذا أمسى مرض العصر

بالنسبة للنساء، فالمرأة الجديدة، وهنا أطلق بيدي طلقة، تريد أن تصبح محبوبة من الجميع وأخر اليوم تذهب للمغفل حتى يصرف عليها بعض المال..

المرأة تريد رجل يضغط زر فيجد لها ما تريد، لا صبر على أن تفهم وتشعر بما يفعله ولا بما ستشعر معه في المستقبل؛ يضغط ليحقق لها أمانيها، يضغط فتتحرك مشاعره وأعضاءه، لا تريد بذل أي مجهود إضافي سوى أنها امرأة، الرجل هو الذي يأتي إليها وهو الذي يبدأ معها الحديث، الرجل هو الذي يكون ظريف هو الذي يتسم بالصفات الخارقة حتى ينال إعجابها الرجل هو الذي يحتوي، هو الذي يشعر ويفهم، هو الذي تتركه فيعود لها، هو الذي يموت من أجلها، وعلى هذا تَحَدد سمات الرجولة من وجهة نظرها، الرجل هو الذي يجلب الزهور والهدايا والكلام الحلو والأفكار الخزعبلية، الرجل هو الذي ينتظر وهي لا، من حقها أن تسبقه في صف استخلاص الأوراق والعمل، فلماذا إذن تريد المساواة معه، هي لا تفلح سوى في رمي كل النقصان على الرجل والضعف والعيب واستغلت أنها مجرد وعاء لا تحتاج لقلب يضخ ولا دم يتحرك ولا أعصاب تحتويها وتخترقها، متى كانت أول خدعة وخيانة؟! أبحثي ستجدين حتما وراءها امرأة..

يشم شعري ويكمل تصلبه على يدي لأركز في التصويب؛ المرأة قد تستخدم آي طريقة وآي هبة بها لإغراء الرجل، ربما بجملة، أو تمايل شعرها أو تطاير حجابها أو طبقة صوت وطريقة ضحكة لتلفت الرجل لها، مجرد لَفتَه لها حتى لو لم يكن يعجبها، فإنه انتصار للمرأة أن تحظى باهتمام رجل، مجرد رجل يلتفت لها، ولهذا تتفنن في التجمل والإغراء، هن لا يضيعن لحظة دون التفكير بالمنافسة في إغراء الرجال والانتصار على السيدات الأخريات، مهما كانت النتيجة والوسيلة، اللهم إن كان عقلها مشغول بأمر أخر، ستفعله من أجل لفت الرجل أيضًا، هذا الذي قد تعتقد أنها تنشغل به عن التفكير في لفت الرجل لها، في نهاية المعضلة؛ الرجل للمرأة والمرأة للرجل..

لا أحد يرى الأمور كما تراها ولا يفكر فيها كما تفكر أنت..

أجلسني كأميرة على أريكتنا؛ المرأة اليوم تريد أن يكون لها أصدقاء من الرجال كما الرجل له صديقات من النساء، تريد تقليد الرجل وحسب، المرأة الحديثة، وهنا أخذ بيدي وأنزلني إلى حضنه واسندني على ظهر الأريكة الأثري التي وضعها أمام العرائس، المرأة الحديثة تشتهي أن تصبح مثل الرجل حتى في أخطاءه، التي دورها أصلًا هو أن تصلحه منها، فلما فشلت لم تعترف بفشلها بل تدنثت بخطاياه، ويحضرنى هنا مقولة مشهورة؛ "حاذر وأنت تحارب عدوك أن تمسي شبهه"، النساء حين أخذن حريتهن أمسين كالأبلة الذي حصل على بندقية فضرب بها قدمه، إن النساء حاربن الرجل حتى أصبحن أسوء منه، يكلمني وهو يمثل علي دور الأبله بالمسدس، ويريني كيف أنه يعلمني التصويب ليس بالرصاص فقط؛ في البداية غارت من الرجل غيرة الضرة، ثم قلدته، وفسد المجتمع، الخيانة الحقيقية هي عدم احترام العلاقة من الطرفين، الخيانة الكبرى أن لا تصلح المرأة الرجل، فكيف تصلحه وهي تشتهي أن تمسي مخطئة مذنبة مثله، صمت فلحقته؛ إذا أنت تعترف بأن الرجل مذنب ..

ومجرم أيَضًا..

وهذا لأن المرأة فاشلة، وخائنة لها ولدورها الحقيقي، إنها أمست مثل الطالب الفاشل الذي يريد أن يرى الجميع ساقطين مثله، وإذا عم الفشل بات النجاح غريبًا وعيبا..

بعد الواقعة الأخيرة بعام أو آكثر، تعرف على صديق له أرجنتيني محترف في التصوير تبنى موهبته وحرص على رفع مستواه، واصطحبه كثيرًا، في نهاية رحلة الشاب الأرجنتيني عرفه على صديقته الحميمية جوليا، فتاة إيطالية تشبه الألمان بشعر قصير، خرجا الثلاثة خلال يومين رائعين من الصحبة المفيدة، اكتشف فيهما أن هناك نوع لم يعرفه من النساء، نوع جيد جدًا، ظنه بأن هذا النوع هو المرأة الإيطالية، بعد اليومين طلبته جوليا لاحتساء الشاي والكيك معها في جروبي، بحضور صديق لها تريد أن تعرفه عليه، وصديقه الأرجنتيني، جلسوا ينتظرون وأخذهم التضاحك ومراجعة بعض المواقف السابقة بسخرية، حتى انتبهت جوليا إلى باب المقهى، فدعتهما إلى اتباع نظرتها، على الأرجح هو صديقها، كانت هي فلقد ترجم حديثها بالإنجليزية خطأ، لم يسمع أنها فتاة، فتاة طويلة القامة والشعر الأسود من بعيد تبدو عربية مع قربها ولهجتها في الإنجليزية تعرف أنها طليانية ببراعة، هنا وقف لها يحيها وسلمت وجلست في استعداد للتعرف على هذا الشاب البارع الذي حدثوها عنه، في المجمل عرف أنه سيصاحبها لعدة شهور كمصور وعالم بجوانب كثيرة في البلد وبعض الشخصيات الهامة، مرت أيام العمل سريعًا حتى اقتربا من بعضهما وفتحت قلبها له بين ليلة وفجرها على قصتها الغريبة مع صديقها في بلدها..

هو يحبها لكنه دومًا يستغل غيابها ويخونها مع صديقاته أو صديقاتها، في البداية بالقطع لم يتعاطف معها وظل يبرر له أفعاله ويحاول خلق له حجة في كل موقف، فهي أخبرته أنها تغيب ستة أشهر وربما تسعة لظروف عملها كصحفية ملفات خارجية تسافر حول العالم وتذهب إلى أماكن أهم الأحداث، كما هي الأن في بلده حيث ينتظر العالم أخبار الجماعة الدينية التي على وشك الصعود إلى الحكم، والصراعات الداخلية التي تحدث للبلاد والمظاهرات التي تجوب الشوارع، فكيف تترك كل هذا وتجلس بجواره في المنزل!، عندها أخبرها بأنها لا تربطه معها، فأي رجل يريد الحصول على المرأة التي يحبها معه وبجواره وعندما يعود من الصراع في الخارج يسند رأسه عليها، وعندما أحست أنه يتهمها بعدم الاهتمام وأن التقصير يأتي منها، اقترحت الارتباط به أسبوع حتى يرى بعينه طريقتها في الحب، شعره الطويل المفرود الذي يعقده خلف رأسه كذيل له وقمحيته جعلاه في عينها رجل جذاب، حتى أنها قالت كثيرًا لأصدقاءه الذين تقابلهم معه أنه هو حبيبي وصديقي الحميم وكانت تقبله في الشارع أمامهم، لكنها كانت مهملة جدًا، وظلت تتجنبه كثيرًا برغم أنه لعب الدور ببراعة وبشهادتها، وكلما أتصل بها واقترح عليها سينما أو سفر أو أي شيء يفعله المتصاحبين تحججت بالعمل، وبالفعل هي كانت مشغولة فكل يوم كانت تعد قائمة بالمهام ومزامنتها ولا تعين له وقت، أتصل بها مرة فأخبرته بذلك، فقال لها صريحة له حق أن يخونك، بالقطع أنت أخبرتيه يومًا أنه لا مكان ولا وقت لك في قائمة مهامي فكيف ولماذا يهتم بك ويصبر عليك؟!..

بعدها أخبره صديقه أنه قابلها يوم ما وعرف منها ما لن يجعله مسرور، إنها تعيش مع شاب أمريكي وتخرج معه وبينهما أكثر من مشاركة السكن، ولها صديق أخر لا يعلم صديقها الأمريكي عنه شيء، هي تلعب بكم أنتم الأربعة، وأشك في أنها قد تكون جاسوسة، ليس لعلاقاتها الكثيرة فقط ولكن تصرفتها وتركيزها في الكلام وهي لا تعرف العربية، برغم أنه سمعها يومها تتحدث في الهاتف وهُيِئ له أنها تتحدث بالعربية، أمور عديدة ياصديقي تجلعها موضع شك فابتعد عنها..

وكاد أن يصدقه فكم من نساء استخدمن في أمور الجاسوسية والأفلام الرخيصة ومجتمع البورنو، ولكنه نسى وهو يسرد تلك النقطة القاطعة أن من يستخدمن هؤلاء النسوات هم الرجال، ولم أرغب أن أثبت نظريته فجملتي هذه هي دليل على ضعف المرأة أمام الرجل ونظام الرجل العالمي ورضخوها أمام المادة وعبادة جسدها..

تركها عدة أيام ربما تشعر بالإهمال، تناساها وانشغل بأموره، وفي صباح يوم بين تلك الأيام جاءه هاتف يحمل صوت بعيد ورفيع يخبره أنه صديق جوليا وأنه جاء إلى بلده ويريد مقابلته، هو انشغل وقتها مع أصدقاء في تصوير اعتصام داخل نقابة الصحفيين اعتراضًا على بعض قررات النقابة،ذهب إلى الصديق هذاعند باب جروبي المغلق في تلك الساعة من النهار، ولا يعلم أحد لماذا؟!، فرآها من بعيد فتاة أوربية بدرجة ممتازة، ملامحها الروسية وشعرها الأصفر المجعد وبنطالها الفضفاض وقميصها القطني المنزوع اليدين، لا يخبران العين أنها إيطالية، ابتسمت له حينما رأته وتمعنت في ملامحه كثيرًا حتى أنها لم تنبته لما يقول، حمل عنها حقائبها وذهب بها ليودع أصدقاءه ثم رحل معها يتعرفا ويفهم منها ماذا تنوي القيام به بالظبط؟!، توالت الأيام واقتربت قلوبهما كثيرًا،أخبرته أنها مازالت في قصة مع صديق حميم في إيطاليا، لكنهما يتركان بعضها ويعودان هما الأن في فترة راحة، وهي محتارةفي أخذ أي خطوة داخل أي علاقة أخرى، أخبريه، هذه هو حله المقترح لكي ترتاح من تأنيب الضمير، بعد عدة أيام عصيبة من العمل طوال ال24 ساعة، أخبرها باقتراح من أصدقاءه السفر معه إلى مدينة ساحلية للاسترخاء من ضغوط العمل والعودة له بكل نشاط، وافقت واتصل بالفتاة الأولى، أخبرها وأنها لوأحبت تأتي معهما فلتأتي، لكنها أخبرته كالعادة بانشغالها ويستمتع هو مع صديقته الجديدة "كيلارا"..

حسنًا، قد وفق في انتقامه ونفخ النار في قلبها، وتوصيل لها رسالة هامة أن العالم لا يقف عند عتبة وجهها، انطلقوا في سيارة صديقه عطار الذي أخبره بقصة صديقته الأولى وعلق على صديقته الثانية أنها أطيب بكثير وأجمل، وبمصاحبة صديق بدأ أن يتلصق بهم بعد وجود صديقته الإيطالية ولم يريدا أن يكسفاه فوافقا على مجيئة على أن لا يسبب أي مشاكل، فهو كان سكير يشرب حتى لا يرى من أمامه ومن خلفه، ساعات الطريق جعلتها هي لطيفة بمواقفها المضحكة وضحكاتها المتقطعة الرقيقة، هو لم يتحدث كثيرًا معها ولا هي معه، يشعر بداخله بقلق من تعمق تلك العلاقة ويخشاها كما يخشى التقرب من أي فتاة، فلم يعد يثق بالنساء ولا بالبشر جيمعًا، وصلا على ساعات الليل وسهرا في مقهى قديم على البحر واحتسوا بعض المشوربات وأكلت كثيرًا، هي طلبت من طبق الترمس "اللوبيني" بالإيطالية، ثلاثة أو أربعة أطباق، وأنهت عليهم جميعًا، صعدوا لفندق متوسط المستوى، أربعة غرف في أسرع وقت، النوم خدر جفونهم وذهبوا إلى السرائر منقادين..

في الفجر أيقظه عطار؛ فصديقته تتألم كثيرًا في المرحاض، قام من مرقده وجرى إلى باب الحمام، يسألها عن حالها فأخبرته أنها تريده بجوارها ينتظر معها،فهي لا تشعر بأنها بخير، فأخبره عطار الذي كان يكبره بخمسة أعوام، أنه الترمس لقد أصابها بإمساك شديد، أنتهت الليلة وهو جالس نائم على باب الحمام وهي بالداخل تتوجع حتى خرجت وأيقظته وأخبرته بأنها بخير ولكنها تشك في أمر ما، دخلوا ليناموا مرة أخرى، في الظهيرة استيقظ وخرج ليجدهم يتضاحكون على ما حدث بالأمس، استقبلته في حضنها ووسعت له بجوارها، وفي استعدادهم للخروج دخل معه عطار إلى غرفته وأخبره بأنه جاءتها دورتها الشهرية ومن حظها المؤسف أنها أتت مع أكلها للترمس، ونصحه بأن يخفف عنها ولا يجهدها، وقد جاهد كثيرًا في سبيل هذا التخفيف، أشترى لها عصائر ومأكولات خفيفة، وهدايا تذكارية وأشياء مضحكة، مزح معها وأوقفها أمام عربة ترمس فهرولت منه في الشارع وكانت المدينة كلها تفرح بصياحهما في الشارع وضحكهما، حتى وصلا إلى قهوة عتيقة انشئت منذ الإحتلال الإنجليزي الأول، تقابلوا مع بعض الأصدقاء فتاتين مثيرتين وثلاثة شباب من البلدة، جلس بجوارها يتناقشا في بعض الأمور الخاصة وكيف أنها لم تخبره بأمر دورتها الشهرية فأخبرته أنها خجلت منه، وكيف لم تخجلي من إخبار عطار!!، لقد أخبرته ليقول لك فهو صديقك وأخيك الكبير وأنتما واحد..

نعم ؟!..

أكبر مشكلة كان يعاني منها، أنها تعتبره هو وصديقه المقرب شخصًا واحدًا، لم تكن في الأمور الخاصة فقط، وقد أعتبر هذه خيانة وقتها، فكتمها في نفسه، لاحظت بعدها اهتمام الفتيات به ومحاولة جذب حديث معه، كان يجاوبهن بكلمات مفردة ثم يعود لما يفعله، ولقد كان هناك مفاجأة جديدة حَضَرتَهَا له، هي تريد تركه بعد قليل وتذهب لأصدقاء لها في المدينة، لم تخبره بذلك إلا في كلام عابر ولم تؤكد عليه ذهابها إليهم وحدها، فحذرها من أن تشرب أو تجلس مع شاربين، لأن الأمر خطر جدًا عليها وهي وحدها، جاوبته بذات الجملة التي ترد بها عليه حينما يحذرها من توجس ما: لقد جُوبت نصف العالم وحدي، لا تخف علي أنا أعيش وحيدة وفي خطر دائم وها أنا أمامك..

حسنًا..

طالما حذرها من أشياء وأشياء، ويضيع كل هذه هباء، أمام جملتها العجفاء، أنا أعيش وحدي دومًا وفي خطر دائم واستطيع مواجهة الخطر وحدي..

لملمت أشياءها ونفسها للرحيل، وأخبرته بذلك، وذهبت إلى أول الشارع ثم عادت لتخبره بأنها سترحل، وذهبت حتى الخارج ثم عادت لتخبره بأنها سترحل، فنظر لها متفحصًا وقام معها وسألها هل تحتاج إلى شيء؟!، هل معها مال يكفيها؟!، فأجباته أنها بخير وودعته، ورحلت، عاد ليجد الفتيات مُنتَظِرنَهُ بأسئلة تعارفيه جمة، كان هو مشغول بقصة قصيرة جديدة نشرت له فأحد موقع الصحف المعروفة، من صفاته الحميدة أوربما السيئة أنه لا يسعى لملاطفة فتاة أخرى كما قلت سابقًا وهو في قصة مع أخرى، فأجابهن ببرود تام وحتى أنه سخر من واحدة عندما سألته سؤال أحمق؛ أنت من أين؟!، فهن يعلمان جيدًا من أين أتوا ولكن طريقتهن دفعته للمزح الثقيل، فغضبت الفتاة وقامت وصاحت وصاح معها صديقها الذي أتى معها بينما حاول الآخران تهدئته وابعاده، وأخذه عطار بعيدًا، حاول لومه فأوقفه، بينما صاحبه الملتصق الذين اصطحبوه تفضلًا، تركهما من أجل الفتيات وأخذ صفهن وذهب ليجلس معهن، ولم يجد عطار سوى الذهاب للغداء وتمضية اليوم معه حول المدينة ومعالمها، وقد قابلا صديق لعطار رجل على مشارف الخمسين لطيف إلى حد لن يصدقه أحد، ودعاهما إلى المبيت عنده والسهر معه..

في الليل عادا للفندق البسيط، ووجدا كيلارا تجلس مع صديقهما الأخر الذي صمت حينما رآه ثم غضب عليه حينما وجده يسحبها من جواره، فطلب هو منها الدخول إلى الغرفة، شعرت بالمشكلة فذهبت بعيدًا ومن ثم أخذه عطار إلى غرفته ليبعده عن منطقة الشجار..

في اليوم الثاني ذهبوا لتناول الفطار في مقهى أثري آخر يرقد تحت قبة من الزجاج المعشق والملون الذي يصنع تحته عالم ساحر من الألوان المبهجة، شعرت هي بأنه متضايق حاولت التخفيف عنه بأغنية إيطالية يعرف لحنها فقط، رقدت على كتفه وغنتها وعزف هو بفمه الموسيقى لها، إنها من أروع اللحظات في عمره التي حسده عليها الناس، لكن هي ليست طبيعية فعينها لم تنم جيدًا، أمازالت تشكوا من ألمها الشهري؟! ولكن ضيق نفسيتها أكبر من ذلك بكثير، هل تجعلك الآلام تشردين كثيرًا؟!، لا تجيب وهذا هو ما أكد ظنونه، لأنه لو مجرد شعور بالوخز لقالت نعم أو أي إجابة، لكنها لا تجيب تصمت وتسرح بعيدًا، هل تخبئين عني أمرًا ما؟!، تمسك معصم يده ومن ثم ترتكز على كتفه وفي ثواني تتركه وتعود لاستقامتها وتشرد، مساكين هؤلاء النساء في دورتهن الشهرية، قلتها أمامه مرة ووافقني، ولكنه ذيل حديثه ذات مرة، بأنه ربما عقاب من الله على حماقتهن، أو زيادة في ترقي الروح بالألم والأجر، بالقطع الإله يحبكن أكثر من الرجال كثيرًا، لكن لا تعلمن ولن تعلمن، لأن هذا إعمال

للعقل ومن أين لكن بالعقل، الله يُعرف بالحب، وأنتن لا تعرفن الحب، وجزء كبير من الرجال الفاسدين أفسدوا قلوب النساء..

ويقف ينظر في المرآة ويتحسس على جلده المحيط بحنجرته البارزة؛ ماذا تعرفن عن ألم ما بعد الحلاقة؟!، عن مغص الخصتين عمومًا أو بعد إرتداء البنطال،عن شكوى الظهر بعد خروج السائل؟!، أو بعد حمل شيء ثقيل لا تقدر عليه أربعة نساء، هل تعلمين أن للرجل دورة شهرية هو الآخر؟!، تأتيه دون إنذار أو سائل يرشده أنها حضرت، ألم مفاجئ في المفاصل وفي الظهر، شعور بالضيق لا يعرف من أين يأتيه؟!، وعاطفة جامحه تنهال منه وسددان نفس عن الأكل وعن الحب، هل تعبن النساء انفسهن في البحث عن ذلك في محاولة التفهم والاحتواء، دورتكن على الأقل لها علاجات، أما دورة الرجل لا علاج لها سوى وجود النساء بجوارهن، النساء الذكيات فقط، إن وجودوا؟!..

عشت معه لا أعقب على ما لا يعجبني من كلامه، ابتلعت كثيرًا لأني عذرته في بعض النماذج التي قابلها والقصص التي أجبرته على قول مثل تلك الجمل الناقمة على المرأة، جملة واحدة قالها في بداية علاقتنا ونحن في طور الصداقة؛ إنني لم أقابل امرأة قوية واثقة من نفسها تتحمل وتستمع قصص من سبقوها وتبقى ولا تهرب، وتتعلم من حماقتهن، تلك الكلمات التي استفزتني وجعلتني أطمح لأكون هذه هي المرأة القوية في عين عدو النسوة..

في الليل وهو يتجهز للخروج إلى دعوة صديق عطار،دخل عليه غرفته وأخبره بأن صديقته تعرضت لمحاولةاغتصاب، صديقها الذي ذهبت لملاقاته في الحفل الذي داعاها إليه، شرب كثيرًا وأَقدم على اغتصابها، ودفعته وأخبرته بأنها في دورتها الشهرية، وهذا هو ما أنقذها منه، وهي لم تُخبرك؛ لأنها تخشى منكلومها وتقول لها أنك أخبرتها بأن هذا سوف يحدث، هي ترتاع من الظهور أمامك كفتاة ضعيفة بعدما أخبرتكبأنها قوية جدًا في وجه الخطر..

لكني أنا رجلها الذي تستند عليه..

أذهب وهدئ من حملها على نفسها..

دق الباب وجلس بجوارها، ونظر في عينيها طويلًا، أنا هنا من أجلك أنت، من أجل أي لحظة تحتاجين فيها إلى أي شيء وسأكون موجود بجوارك..

ثم قام وبداخله كلمات كثيرة لم تقال، فهو لا يعرف أيحسن قولها في هذا التوقيت أم ستفسد الأمر أكثر، فكتمها إلى لا يعرف متى ؟!..

دهس عطار قدمه وهو يعود بالسيارة حينما قرر الهبوط وتحرك الأخر دون الحذر منه، رفعته على كتفها حتى باب شقة صديق عطار، مؤنس، الذي استقبلهما بترحاب وخصها هي وهو لإصابته بالمصادفة، أحضر لهم الضيافة من المشروبات والمأكولات، وأخبرهم صديقه الملتصق أنه يريد شرب خمور وصدقت هي على كلامه، فأحضر المضيف المطلوب، شرب كلٌ من مشربه، بعدما تجرع الملتصق بعض الزجاجات من الجعة مع بعض التكيلا، بدأ في العصبية والتلويح بالزجاجات، والحديث عن واقعة الفتيات ولامه فيها وسبه، عطار ظل جالسًا لا يتحرك، يشعر بالخذي والكسوف أمام صديقه، لا يريد التدخل حتى يأتي له دور، بينما كيلارا تمسك به حتى لا يغضب وأخذته بعيدًا واحتضنته فاحتضنها متأسفًا على ما يجري لها معه، ومؤنس يبعد الملتصق حتى يهدأ والذي يصيح بالتحدث عن فتاة من فتاتان المقهى أنها ألطف كائن قابلها، بينما هو وجه له الاتهامات أنه لا يحفظ شرف صداقة ولا جميل، فهم الذين اصطحبوه وهو لا يحمل مال، وليس له دور في هذه الرحلة، وأشياء أخرى لم يرد الإفصاح

عنها لاعتبارأنها عيب تقال، حتى في شجاراته يحتفظ لنفسهبأخلاق الفارس، ولربما أخلاق الفارس هذه التي جعلت نساء كثيرة تنتزع منه ماليس بحقها وتأخذ منه نصيب أنثى الأسد..

استمر الشجار حتى جن الليل وتعب ونام الجميع، هو نام بجوارها وعطار جلس يحتسي القهوة في شُرفَة صغيرة مُطلةعلى الشارع، حتى ينام وهو جالس، أما الملتصق قرر أن لا يترك زجاجة خمر مليئة بقطرة، ومؤنس ذهب إلى غرفة نومه، استيقظوا على صوت عطار يمنع سكين من يد الملتصق سعى لغرزه في قلبه وهو نائم بجوار صديقته، صاح فيه عطار ليستيقظ، صرخت هي وابتعدت وسحبته من يده بعيدًا،جُرح عطار والدماء تطايرت من يده، عندما ذهب هو إلى حامل السكين وساعده مؤنس الرجل الخميسيني في سحب السكين بينما عطار يكتفه من خلفه، وأخذه تحت صنبور الاستحمام حتى يفيق مما هو فيه، ويغسل يده من الدماء، مرت الساعات في الصمت المؤسف، ومؤنس مازال يلعب دور المضيف وحضر فطار شهيًا ودعاهم وأحضر أكواب الشاي، الملتصق وحده هو الذي جلس ليأكل ويشرب، حتى قرر عطار أن ساعة الرحيل دَنَت، هي كانت مستعدة بحقيبتها التي لا تتركها؛ فيها عدة تصويرها وبعض الملابس الخفيفة للغيار كما كان هو يفعل بالظبط، أكثر نقطة يتشابهان فيها تلك النقطة البسيطة التافهة التي يتشابه فيها أكثر شباب العالم، ولم تكن هناك نقاط كثيرة أخرى، ودعوا مؤنس وهو يتأسف منه كثيرًا وحاول شرح الأمر،أخبره أنه لا يريد معرفة شيءولكن في المرة القادمة أحسن التصرف والاختيار وتعلم، هذه المرة كان من الممكن أن تموت،فما الذي سيحدث في المرة القادمة مهما كان فكن مستعدًا..

فاجئته أنها ترغب في التمشي وحدها بعض اليوم، وستعود على ميعاد الرحيل، فلقد قرر عطار أنه يكون هذا أخر يوم لتفادي أي مشاكل أخرى بعيدًا عن بيوتهم، وقد تنفد منهم الأموال قريبًا..

في المساء عادت إليه حاولت التخفيف عنه، ولكنها بدت متعاطفة مع الملتصق جلس معها قبل رحيلها وبكى أمامها على ما فعله، وقد أخبرته مرارًا وترجته في مسامحته وعدم تركه له هنا، لكنها نهر ترجيها وقال؛ فليتصرف في نفسه أو يعود لأصدقاءه الذين تركهم من أجلهم ليسلفوه ثمن العودة، فاستعطفته: لقد بكى.. لقد بكى ..

لم أعلم أنك رقيقة إلى هذا الحد..

نحت الحديث على جانب وجلست معه وحدهما على مقهى مجاور للفندق، رحب بهما الساقي وظنهما سائحين يتحدثون العربية، التقطا صورًا بعدستها طوال الليل، حتى جاء عطار بصحبته الأخر، وصعدا لينام أخر ليلة في الرحلة، وفي الفجر كان الوداع..

غاب في الإتصال وتردد العودة مرة أخرى لتلك الفتاة المجهدة الغير مفهومة،حتى علم من عطار أنها تخرج بمصاحبة الملتصق وأصدقاءه، أتصل به ذات مرة وأخبره أنها الأن تجلس معهم ومن الأرجح القدوم الأن ليرآها، وحضر فعلًا ورحبت به كأنها لم تتفاجأ، بعد قليل من الحديث واللوم أنه لم يتصل بها مرة أخرى، في مقابلة لومه لها، لماذا لم تتصلي أنت؟!، صمتت وفي تلك اللحظة من الصمت، داعها شخص من أصحاب الملتصق فقامت وانعطف بها في منحنى، وعندما ذهب وراءها ليطمئن فوجدها تشرب الحشيش معه وبطريقة تبادل الأنفاس، تركها تأتي وهنا أخبرها أنه يكسر علاقته بها، ماذا؟! خرجت منها في اندهاش مبالغ، فابتسم وأخبر العطار أنه سيرحل..

لم تكن تلك الفترة سهلة عليه للغاية بل ثقلت موازين قلبه حتى اندهس بمعنى الكلمة، ولم تكن تلك الواقعة هي الوحيدة التي وجعت قلبه هكذا، بل كل يوم يمر كان يحدث أمرًا يكرهه في حياته أكثر، لم ينسى أبدًا أصحابه الذين تجنبوه، إلا حينما يروها معه، والاهتمام الذي حظى به في الأوساط الثقافية والإعلامية؛ لأنه يسير بصحبتها، ولم ينسى ذكر كل تلكم الفتيات التي بدأن الاهتمام به والتطلع له دون تصنع الثقل عليه إلا وهي معه أو عندما يروه وحيدًا بعد وداعها له، في تلك الفترة الطويلة جلس وحيدًا رافضًا أن يرى العالم مرة أخرى بكل رخص وخسة البشر من حوله، حتى لو خرج ذات مرة ليحتسي قهوة بحرية في مقهى الحرية أو يشرب أي شيء، يقابلنه تلكم الفتيات ويحاولن، ويحاولن، ولكنه لم يعد يرى بشر، هو الأن يرى ذاته محلق بجوار الملائكة، أو تحضر الشياطين وتنزعه إليها وإلى الأرض يعود، يمشي بثبات حتى يثبت لنفسه أنه لا يترنح، ولم تأثر أي ضربة في القلب أو على الرأس في صموده، هو ذاك الإنسان الأول أو لا يكون أي شيء بعد..

في إحدى تلك الليالي وبعد وقت طويل قابلها وهي تمشي بجوار كلب لطيف، أنحنت في طريقها لتقطع عليه مضيه على الجهة الأخرى، لقد وضح عليه تردده في لقاءها، سلمت عليه وقبلته، وأعلمته بأنها تمشي كلب صديقتها وتعتني به حتى تعود من السفر، وعندها بعض الوقت لكي يتحدثا..

ميدان النصب التذكاري لرجل الاقتصاد الأول في تاريخ البلد وفي تلك الساعة من الليل يهدئ ويذهب الناس إلى بيوتهم إلا تلك الليلة لم يكن في هدوءه المعتاد، لقد سمعت النوافذ المحيطة شجار بالعربية والإنجليزية والإيطالية مزيج عجيب قد يستوقف أي أحد، هي مصرة بأنها لم تخطئ وهو مصر أنه صبر على حماقتها كثيرًا، انتهى الجدال عند بائع بيتزا بلدي قد اقترح عليها تذوقها وتقارن وهي من بلد البيتزا وتقول رأيها قبل صعودها لمنزلها..

وجدتها لمسة لطيفة منه وسألها هل تريدين العودة فأجابته؛ إننا لم نترك بعضنا يوم وأنت في بالي دومًا- ابتسم وأشار لها بأنه لا فائدة منها؛ أنت لم تحاولي الإتصال بي يومًا، دافعت؛ أوقات كثيرة هاتفك كان مغلق، نفى ودلل على كلامه؛ هذا الهاتف القديم لا يفصل شحنه لمدة أسبوع، على العموم هذه الفترة مطلوب مني أعمال كثيرة حيث أنضممت لحركة حقوقية عالمية تعمل على مستوى سري، أخبرها بذلك كما أعترف لي حتى يرى رد فعلها، وجدها تركت أمر رجوعهما وركزت على تفاصيل هذا الأمر الشيق، فقال لي؛ هذا هو الفرق بين الرجال والنساء لو أن رجلًا قيل له ذلك سيقول دعك من ذلك وقولي لي هل سنعود حقًا لبعضنا!!، أما المرأة ستركز على الأمر الشيق فحسب وهكذا قد تحققت ظنونه، تهاه في حديثه وطلب منها الصعود حيث لا يتأخر ..

لم تحدث تفاصيل كثيرة سردها لي عن تلك الفترة سوى أنه يرآها بصحبة الملتصق في بعض الصدف وهو عائد لبيته يأبى الاتصال بها، وهي منشغلة عنه بأمور أخرى، حتى تقابلا في منحنى ولازالت تلومه على عدم اتصاله، فواجهها؛ لن أتصل بك أنت من عليه ذلك، لن أنولك تلك الرغبة النسائية..

اِعتقد أن بعض قصصه لم تنجح لذاك السبب، إنه لا ينول المرأة رغباتها النسائية، رغبتها في الإحساس بالاهتمام المفرط أو التضحية المميتة أو التنازل، لقدقال أمامي مرة؛فمن تلك التي تجعلني أن أضحي من أجلها، لا توجد امرأة على الأرض تستحق أن أفعل من أجلها شيء حتى تميل لي فقط..

اتفقا يومها على الذهاب إلى حفل موسيقي مفتوح، ميدان كبير فارغ أمام قصر جمهوري مهجور، وقام بعض النشطاء على مداومة الحفل فيه، يومها أتصلت لتؤكد الميعاد، بعدها

أتصل ليسأل عن عدم تواجدها في الميعاد، وقد ترك أصدقاء له يذهبون،وهو ينتظرها فلم تأتي، ذهب وحده،ويسأل نفسه يلوم من على هذا؟! لا أعرف.، هناك قابلته وهي بصحبة أخرين، لقد كنا على إتفاق فمن هؤلاء؟!، ابتسمت وأخذته من يده لحيث بعض الحلي النسائي المصنوع من النحاس والخيوط والجلود، وقف ورائها فظنه قد يكون في محله أنها ترغب في شراء لها تذكار كعادته، لكنه لن ينولها هذا، أستأذنته للذهاب مع رفيق جاء معها، شاب طويل القياس والشعر بهي الطلعة، يشبه المسيح عليه السلام، الذي يجسدونه في الأفلام والصور، هكذا قال لها؛ من هذا الذي يشبه المسيح كأنه خرج من فيلم "الآلام"؟!، أذهبي مع شبيه المسيح لربما ينصلح حالك، لامته بخبث على دعابته كما أنها لم تكن تؤمن بأي دين، فهى غير دينية كما تصف نفسها، تركها ترحل معه وانشغل هو مع بعض الأصدقاء الذي وجدهم هناك، فتيات وفتيان، وجدته بينهم وفجاءه جاءته تحتضن وسطه، وبينما هو منشغل بالأغنية الهاتفة المحفزة قالت له؛ أنا أحبك ((I LOVE YOU))..

نظر لها ولم يطل النظر؛ أنا أكرهك، وقد كانت المرة الوحيدة في عمره الذي قالها لأحد، ليس لامرأة فحسب، لم يكن ليقولها اليوم فقط، فقد قالها لكل يوم قضاه معها وهو يرى الناس قد تغيروا لوجودها بجواره، لقد كره رؤية حياته تتحسن بسببها، والجميع يتقاتل على الجلوس معه ومحاولة التقرب منها، لقد كره حياته كلها بسببها وبسبب خيانتها له، وبسبب وجودها الذي تفرضه وقتما تبغيه، لقد كره قيدها الذي حبسته فيها وحريتها المتهورة التي أودت بها كفتاة عاهرة على كل الموائد..

في النهاية تركها وحدها ذلك اليوم، وقد خَلَدَت عدسة صديق لها تلك الذكرى بصورتين جسدت الجملتين وتركت القصة كالحكاية الوحيدة في حياته التي انتهت نهاية حقيقية والوحيدة التي انهاها بنفسه..

" 5~المرأة متنازلة"

من المرات القليلة التي شاهدنا فيها التلفاز سويًا، وكعادته يمسك موجه القنوات ويقلب دون الاهتمام بقناة معينة، غير قناة الحيوانات التي كنت اتحاشى مشاهدتها معه حتى لا يحدثني عن دور أنثى الحيوان في البرية وجملته المعتادة التي يقولها بأفخم طبقة عنده؛ لم نجد أنثى حيوان تتذمر على دورها في الطبيعة وتطالب بالتساوى مع الذكر، وكان يصفق ويضحك كلما جاء فاصل القناة الذي يقول فيه المعلق على تعارك ذكرين من الظباء بعد مرور أنثى، وها هو دوما أصل المشكلات، الأناث، أم عندما يأتي برنامج يحكي عن حياة ملكات الأسود وملكهم..

وسحبنا الحديث في نقطة ضرورية لحياتنا وشكلها، الإنجاب، لقد حدثني عن صديق له يدعى سعيد، لا يريد الإنجاب في هذا الزمن، بينما وهو يحكي عن صديقه العجيب؛ قطعته لأشكوا له من مشكلة واجهتني في عملي، ارتميت على كتفه وهو كان يحب سماعي أحكي لأنني لا أتكلم كثيرًا ودوما أسمعه..

"الاستماع إلى المرأة مثل قراءة الشروط والأحكام في تحديث البرامج لا تفهم شيء ولكنك يجب أن تضغط موافق"، وهكذا هو كان رأيه الذي رأيته في كتابه شيطان المرأة، ومع ذلك كنت مصرة دومًا أن ينتبه لي في الحديث حتى لو وصلت بالأمر لامتحانه فيما أقول..

وصلت لنصف المشكلة، وتوقف عند قناة عائلية تذيع حديث معاد لأحد الدعاه الشباب، ببرنامج دومًا سخر من اسمه، النساء لا يعرفن الكذب، وكل مرة يعدله ضاحكًا النساء لا يعرفن الحب..

ـ انتظري فسيتحدث في نقطة هامة، أريدك أن تستمعي لها جيدًا..

"لو أن هناك امرأة محجبة صوتها جميل واستطاعت الغناء وظلت بحجابها هذا لأنها ربما شعرها ليس جميل ولو استمرت في الغناء وهي شعرها جيد ستخلعه يوم ما بحجة أن هذا من دواعي المهنة وشكلها، وستجد مبررات كثيرة، وهذا حدث بالفعل..

ولو تخيلنا أن فتاة عملت كعارضة أزياء للمحجبات وأغرآها جمالها كما يغري الجمال آي امرأة، وتستخسره في حياة عادية وزواج وإنجاب، أو حتى الاستمرار في كونها عارضة لأزياء المحجبات فقط، ومن ثم تلبس حجاب على أزياء غريبة أو على ملابس ضيقة أو كاشفة لجسدها، أو على نصف أكمام أو يتزحلق الحجاب عن رأسها، وتظل تتنازل عن قطعة قطعة فتتحول إلى عارضة عادية تبرز مفاتن جسدها، ثم نجدها تسقط في المبيقات والحياة التي تُقلد فيها العارضات العالميات، ثم تتحول إلى عارضة "مايوهات"، ثم تدخل مضمار الحياة التائهة التي تعتقد أنها رائعة، لا هي بقت محافظة ولا هي عارضة عالمية وتظل تتساقط قطعة قطعة حتى تصبح نجمة كبيرة قد رأى عدد كبير من الناس جسدها الذي اشتهرت به لا شيء آخر، وماذا يحدث للنجوم حين تتوهج وتتكشف سوى الانفجار والانتهاء إلى مالا نهاية، والنجوم التي ترفض الدثور وتظل شموس مسنة تلتهمها السخرية وقلة القيمة والهرولة وراء المزيد من المال ومن أجل استمرار المال، انخراط في مأساة الحياة، لهذا الدنيا دائمًا تشبه بالمرأة لأن حقيقتها هي عبارة عن حياة امرأة، فإما تختار المرأة أن تكون إنسانة تختبرها الدنيا أو تكون هي الدنيا ومجرد واحدة من إحدى فتن الدنيا ..

قاطعته إحدى المذيعات وسألته بتحد؛ هل الله يريد النساء مخيمات ومخمرات، هل الله ينظر إلى جسد النساء؟!

فضحك منها وجاوبها في هدوء؛ الله يحب النساء ويراهن أغلى المخلوقات لأنهن وعائه للخلق، الله يحب النساء أكثر من الرجال ويفضلهن عليهم، ويخشى عليهن من السقوط ضحايا للجشع والطمع فيهن وفي أجسادهن، ولا يحب أنها تصبح مجرد سلعة تتداول وصورًا تستغل، الله خلق حواء للجنة، وإننا نريد للنساء دخول الجنة، ماذا سيريد الرجال من النساء سوى الظهور عاريات لكن الله لا يريد لهن كذلك..

من حصر جمال المرأة في تحررها من ملابسها؟!، إن المنطق يفضل أن تنظر المرأة إلى أبعد من جمالها وفتنتها في جسدها، ولعلمك وعلمكن اللباس الفضفاض والمخمري ليس مشين للمرأة بل بالعكس، أنه يجعل كل النساء متساويات، الرفيعة والثمينة المثالية والمعيوبة، إنه يحقق العدل بين اختيار النساء للحب والزواج فلا تفضيل إلا في الوجه والذي هو حق الرجل في اختيار من تحبه ومن تسره، الرجال هم الخاسرون ياعزيزتي وليس النساء،الله لا يحب أن تفضل النساء بعضهن على بعض بالجسد وجماله والشعر ونعومته، أو تنشغلن بشيء سوى العلم والمعرفة والدين والأخلاق وتربي الرجل ليتحملوا مشقة هذا العالم، أنظري حين خرجت أمور النساء خارج غرفتها وجدنا رجال ناعمين ومصدر سخرية للنساء أنفسهن لا يتحملون أي مسؤولية ولا مسؤولية عصفور صغير في قفص..

أليس النساء تطالب بالمساواة، الأجدر أن تحقق المساواة بينهن أولًا، والفضفاض ليس للنساء فقط بل للرجال قبلهم، ولكن قولي لي لماذا من حق المرأة ارتداء قميص مفتوح الصدر ولكنها تنزعج من فتحة صدر قميص الرجل وربما تأمره بقفله، لماذا من حق المرأة التحدث عن ذقن ورقبة وعين وجسد الرجل المشهور وعندما يفعل رجل هذا مع صورة امرأة ما يتهمنه أنه " بتاع نساء"، لماذا من حق كل النساء أن تسب الرجل والرجال جميعًا، وعندما يفعل رجل هذا يصبح عدو المرأة ومهين لها وفي مجتمع ذكوري؟!!، لماذا لم يقول الرجال أننا في مجتمع أنثوي حينما قتلت المرأة الرجل وقطعته في أكياس، أو تأخذ مكانه في العمل أو تترقى قبل منه، أو تسبه وتضربه وعندما يريد أخذ حقه يقال له أنها امرأة وعيب عليه رد الإهانة حتى..

لماذا تشهر النساء بالرجل وتفضحه وتجعل من هذا عمل قومي، أما عندما يأتي الفعل هذا من رجل يصبح عيب وليس من شيم الرجال والواجب ستر المرأة، وتجد من تخرج لتقول

أليست مثل أمك أليست مثل أختك أترضاه عليهن، وأريد أن أسألها هل عندما تسبين الرجل لا يكون أباك حاضرًا في ذهنك أو اخوك أو الرجال الصالحين في حياتك..؟!

ما يسري على المرأة يسري على الرجل، وغدًا سيطالب الرجال بالمساواة مع المرأة، " ضحك"، إما أن نصبح جميعًا فاضلين وإما أن نختار التحول جميعًا لشهوانين، إما أن نحافظ على كرامة الرجل والمرأة أو نمسي جميعًا خاطئين ساقطين.. المرأة مثل الرجل كونهما بشر لكنهما غير متشابهين في الدور، وأي خلل في المنظومة سيصبنا جميعًا بالاضمحلال، ولن يعود بالنفع على المرأة، يا نساء إنما ما يحدث لنا من اعوجاج سيضرك أنت وباقي النساء، فالمرأة تُضر أكثر من الرجل، الرجل للبهدلة والمرأة للهندمة، وفي ميزان الدين ما يعيب المرأة يعيب الرجل وأما في ميزان العرف السائد؛ الرجل لا يعيبه شيء وهذا ليس في الدين من شيء..

نظرت له وانتظرت تعليقه، فلم يعلق حتى أتحدث أنا، فهمت نظرته لي بجانب عينه؛ أنا لا أفهم ماذا يقصد هذا المتحدث المعقد؟!، هل قصد بأن المرأة تتحول مع الزمن إلى عاهرة؟!

هو يقصد الإنسان الذي يسعى لجذب الشهرة وإعجاب الناس، وأن الذي بدأت التنازل اليوم عن كتف عاري غدًا ستعرض الكتفين، حتى يصل الأمر إلى الجسد كاملًا، وتصحبها كلمة وماذا فيها؟!، الأمر ليس منوط بالمرأة، فالمشاهير في كل العالم نجدهم يغيرون منطقهم ومبادئهم، ويتوبون ثم يعودون، حتى صار الحجاب والجلباب والتوبة أدوات لجذب الشهرة وهو أمسى من أسس ونظريات علم الضجة والاستعراض وإثارة الجدل..

اعتدلت وواجهته؛ أنت تقف معه في رؤيته الدونية هذه، أشار إلي لأحاسب على حكمي على الأمور لقد عودني على عدم التسرع في إصدار التهم إلا بعد التفكير المدقق لكافة نواحي وأوجه القضية أو الرأي؛ لو أن الحجاب خرج موضة في أوروبا ماذا سيحدث؟!

- ستتحجب جميع فتيات العرب..

حسنًا، ولو أن العري لم يعد يعجب الناس وفضلوا الملابس على غرابتها وتناسقها الجميل؟!

- سيرتدي الجميع الملابس ويتنافسون عليها..

حسنًا ها أنت حللت الموضوع، لماذا أنت لست مثل باقي النساء؟!

- لأنني لست أهتم بما يهتممن به ولا بالموضة والتفاهات التي يسيرن خلفها، وأرتدي ما يناسبني والمكان والزمان اللذان يصاحبانى، وأفكر بعقلي ولا أتعجل ولا أتخيل ولا أترك نفسي لهروموناتي تتحكم في انفعلاتي، وأعامل نفسي على أني أميرة ملكية ولست عاهرة أو فرجة مجانية..

ومن عدوة المرأة الحقيقية..

صمت ثم تابعت: عدو المرأة الحقيقي هو المرأة نفسها..

جذبني إليه بحنو مبالغ، وتطرق إلى قصة حدثت له فسرت أمامي ما يحدث في المجتمعات المنغلقة وكيف تتحول النساء سبايا من أجل الانخراط في عالم الرجال وهن يدعين أنهما مستقلات بينما هن على الخطى التي يريدها الرجال، بداية من الحديث عن الحرية الفكرية والجنسية إلى التحرر من الملابس وتقليدً لنماذج بالية وصور من وقائع قديمة، إلى المجتمع الحقوقي والإعلامي الذي يحافظ على صورة المرأة بشكل نمطي واحد متكرر..

أحد الأماكن التي عمل بها وبدأ فيها من الصفر حتى أصبح من أهم الكتاب فيه، وحصلت قصصه على أعلى القراءات، سماه بالمؤسسة التي تدار بالمؤخرات، فالرئيسات في هذا المكان لم يعينّ بخبراتهن بل بمؤخراتهن، فالمؤخرة الكبيرة سكرتيرة، والأقل رئيسة قسم مهم، والأقل في الفن والأقل في المنوعات، وحينما دخل ليعرض خبرته العملية صادف أن نصفهن حضر المقابلة والذي انبهرن منها فلم تكن واحدة فيهن تحمل ربعها، رئيسته في العمل الفائقة الجمال، كانت تعمل لأول مرة في إدارة قسم ولم يسبق إلا سوى مكان أو أثنين في خبرتها بجوار الخمسة عشر مكان في مسيرة عمله، ومع ذلك عمل بجد حتى وصل لاهميته في هذا المكان..

بعدما ذاع سيطه لم يعد يبحث عن الموضوعات الشائكة لقصصه بل باتت تبحث هي عليه، أتصلت به ذات ليلة صديقته سارة وحدثته كثيرًا عن قضية تقف في حلقها، وهي التي تعمل محامية وناشطة ميسحية في منظمة حقوقية قد تكون الأكبر في المجال، وعدها ما أن يفرغ من انشغاله في متطلبات العمل والكم المطلوب منه سيلقاها فورًا، تقابلا في أحد النوادي التابعة لكنيسة كاثولكية، هو أهدئ مكان نستطيع التحاور فيه، هكذا دفعته إلى الداخل بجملتها، ووجدته يعرف هذا المكان ويزوره بعض الأحيان مع أصدقاء..

إنني أرى بعيني كل يوم كارثة حتمًا وأنت الوحيد الذي سينقذ هؤلاء الفتيات..

انتبه جيدًا وهي تكمل؛ هذا ليس دفاعًا عن الحجاب وإنما هو دفاعًا عن الحق ودرء التسلط باسم الحرية والقمع تحت مظلة التحرر، إنه يتم تضيق الخناق على الفتيات المحجبات وإرغامها على خلعه بطرق ملتوية، يضعنهما في خانة المهمشة، لا يعطوها أي دور تمثيلي ولا متحدث، يجعلونها تظن أنها في منطقة محظورة، وإنها تتشبه بالجماعة المحظورة ولذا وجب التخلص من هذا الشبه القريب، أنا ناشطة مسيحية ليس لي أي مصلحة للدفاع عن الحجاب، بل إنني أدافع عن اضطهاد هؤلاء الفتيات المساقون إلى صورة نمطية ما، إن كنا ندافع عن حرية ارتداءه أو خلعه فمن اللازم علينا الدفاع عن حق حرية المرتديات له في الألتزام به في عملها وإعطاءها كامل الفرص كما للأخريات..

جلس جوارها يسمعها ويكتب كل نقطة شائكة، ومن عندها من نماذج لن يتحدثن لأنهن لن يعترفن بأن هذا حصل لهن وإنهن لسن ضعيفات بل هن نساء قويات مستقلات متحررات والأخريات يخشن الفضيحة أو لا شجاعة لهن في نشر قصصهن..

وبحث طويًلا عن معانيات من هذا الضغط الموجه، خفن بعضهن والأخريات استكبرن على الاعتراف بما حدث لهن، حتى وجد الفتاة المناسبة الشجاعة التي أقدمت على نشر قصتها، سَمّراء فتاة عانت من وجود الفرصة الحقيقية في وسطها العملي، ومثل لم يرحمها المجتمع الخارجي لارتداءها الحجاب لم يرحمها المجتمع الداخلي، وظلت تعيش بين المطرقة والسندان فترة من الزمن، تخلعه عند العمل وتلبسه عند المنزل..

واستكمل الأسطر وعرضها على رئيسته التي بدورها عرضته على رئيسها، رفض دون سبب، ولكن سرب السبب له عن قصد أو دونه؛ أن أكثر من نصف الفتيات الائي يعملن هنا قمن بخلعه ويعشن ذات المعاناة وسيكون مزعج جدًا لهن، لأنه حقيقة تصادمية ستنهار أمامها عدة أوجه، ونحن نريد مواضيع وقصص يحبها الناس لا أن يمقطها فئة معينة، مثل فتاة تجوب الشوارع بفستان الفرح إرضاء لأهلها، الذي حققت به هذا النجاح كله فلا تتخلى عنه في سبيل قضية خاسرة لن تربح فيها ناقة ولا امرأة، واجهه في النهاية مدير التحرير بذلك، ولم يعلق بل انتظر اليوم الذي سيخرج فيه من هذا المكان، وسرعان ما أتى سريعًا بحجة أنه يفتعل المشاكل كثيرًا..

أذكر أن بعد هذا التاريخ الذي ذكره لي، وهو أكد لي على ذلك؛ قضية الحجاب أثيرت بشكل يرج المجتمع كافة، بأقل من شهرين وكان له الحق في الأسبقية لكنه حظه العسر، وعلى مستوى موازي أتصل به زملائه الذي علموا شأن قصته وما حدث فيها، وباركوا له على نظرته المبعدية وسبقه لعصره..

هو لم يفرح بهذا السبق، بل خاف كثيرًا ليس من الهجمة التي ناهضت الحجاب وفرضه وسنته، بل على الزوبعة التي ستصيب الجميع من جراء قضية كمثيلتها؛ هل الشبشب مقلوب حرام أم لا؟!، إننا نتحدث عن حرية ـ حرية ارتداء الناس الملابس وتركنا القضايا الأهم والأعم، هكذا أنزعج يومها وفجر خوفه هذا عندما وجد صديقته العارضة المشهورة بأنها أول "موديل" للمحجبات، قد خلعته وأمست عارضة عادية مثلها كالباقيات، صال وجال وعلى صوته وذكر لي أنه كتب في مقال لم يسرد منه إلى سطر واحد، غدًا سنجد ارتداء مايوه البكيني مشروع ومنتشر والكل يقلد، وتصير فتياتنا مثلها مثل بنات الكيان الصهيوني..

خليط من الأفكار لا تعرف أي من هذه أفكار سلفية وأيها أفكار محقة خائفة على انحدارالمجتمع الشرقي خلف العري وتحويل النساء إلى عارضات وانشغالهن بالتنافس فيما بينهن على من تخلع أكثر من الأخريات..

لم أكن معه في تلك الفترة؛ فقد حدث هذا حدث قبل لقاءنا بأعوام، وقد تحقق كل ما قاله وطفح على وجه المجتمع العري والتعري، وانحدار الأخلاقيات والتفشي بشكل أصبحن نصف النساء راقصات والنصف الأخر عارضات، وبرغم عدم وجودي فقد حرص على سرد كل شعور اختاله في تلك الفترة بالذات، وكيف مقالاته وقصصه لم تجد سوى السب والقذف من النساء جميعًا؛ فلا عجب الخالعات، ولا نال ود المرتديات وفي ذلك فسر لي؛ لا تمتع المرأة بالسخرية ولا الفكاهة، ففي قضيتنا ضدها تجد الساخرون منهن كثيرون أم في قضتيهن ضد الرجال لا تجد إلا السباب، في الحقيقة لا تتمتع المرأة سوى بجسدها والتي لا تتمتع بجسد مثالي أو جمال وجه تحاول أن تتزين بمهارة آخرى علم آو لغة أو محاولة الفكاهة وسحر الضحك، فقد تجد امرأة تتعلم سحر الضحك فقط، ويرتدين عباءة حقوق المرأة، وتجدهن نسخ مكررة من بعضهن،وإن نظرن جيدًا للنساء الناجحات والائي خرجن من بين ظلمة القمع الذي يتحدثن عنه ستجدهن لا علاقة لهم بمجال حقوق المرأة، هن شاطرات فقط في أخذ تلك النموذجيات الناجحات للتلويح بهن والتفاخر، كالقرعة التي تتباهى بشعر بنت أختها..

اتجه إلى مكتبه وتأخر فدفعني إلى اللحاق به فوجدته يكمل مع ذاته ويسمعني؛ أعظم وقت على البشرية حينما جاء هذا النوع من النساء الائي تعلمن العلوم والفنون وضحين وتزوجن ليخرجن أجيال تتمتع بهذه الثقافات والحضارات، أما حينما نظرت المرأة لنفسها بعين الأنانية وتصورت بأن بيتها وبيت زوجها كالبرج العالي وهي الأميرة المحبوسة فيه وهربت منه، فسد العالم ولم يعد فيه خير يواجه الشر بل أصبح شر فقط..

ـ أتحمل الذنب كله على النساء..؟!!

أقفل كتاب العلوم القديم الذي في يده بعدما فتحه على صفحة عشوائية ليشير به فقط؛ نعم هي التي تتحمل ذنب فساد العالم أجمع وذنب ولادة رجال لا يحترمونها، فهناك مثل مشهور لأم ملك في أوروبا القديمة كانت ترغم ابنها على قمع زوجته واغتصابها، ومسرحيات شكسبير التي جسدت شناعة وخيانة شهوة المرأة للحكم أو المشاركة فيه، كل هذه أمثلة ليست حالات فردية كما يدعن الحقوقيات أحيانًا، فالنساء عندما تحكم يكن لها مكيالين، ولا تحكم على الأشياء بالعدل، في حالتها تكون مساوئ المرأة فردية أما حينما تقابل رجل واحد سيء اختارته هي يكن كل الرجال أوغاد..

نظر بعيدًا حتى يهدأ ولا يجعل ملامحه الغاضبة والقاسية في وجهي وحتى لا أظن أنه يعنيني بالحديث هذا ويجمعني معهن في بوتقة واحدة؛ هي التي أرادت الخروج إلى العالم فلتتحمل فظاعته، قديما تحمل الرجل الذنب كله، أما إن أرادتالمرأة المشاركة الآن، فتشاركه كل شيء بكل شيء، وتتحمل فساد العالم بدلا عنه إن تستطع..

ثم عاد إلي ويوزن الحديث بيديه؛ مثلما أخذ الرجل المدح كله فهو يحصل على السب كله، فمن يرمى بالثناء يقذف بالذم والانتقاص، فالرجل يتحمل ذنب فساد وضياع العالم وانهيار الحضارات، بينما هي كانت تجلس في البيت، وفوق ذلك تحمله المرأة ذنب قمعها وفشلها في مهمتها التي هي تخريج رجال صالحين يحترمونها ومصلحين يحترمون العالم، على أي عالم هي تريد منافسته وتشتهي أخذ فيه مكانة جواره!!، هذا العالم خطير ومزري، فلماذا تريد الهروب إليه وتقابل كل تلك الوحوش التي يحاربها الرجل، هل هي روح المغامرة داخلها؟!، إن بعض المغامرة حماقة ومن يفعل الاثنان عليه تحمل نتيجتهما، لقد كانت في آمان تام وهي مختبئة في المنزل، فإذا اختارت الخروج للخطر فلا تجزع وتشتكي وتبكي وعليها الموافقة على شروط العالم والحرب، ولا تعود في نهاية المشتكى تتمنى الرجوع لحياتها الأولى والاختباء كقطة تحت أي كنف في بيت أبوها أو زوجها، لكن لن تعرف وحدها ذلك وكان لابد لها أن تجرب، لابد لأي إنسان التجريب،هكذا خلق الله النموذج البشري، جزء تراكمي وجزء تجاربي ..

ثم أي امرأة نتحدث عنها، الموهوبة والعبقرية!، التي هي مثال للمرأة ولا "تدوش" المجتمع بحياتها الشخصية أو الداخلية وفزاعة حقوق المرأة، أم تلك عديمة الموهبة التي تكتسب شهرتها بكشفها جسدها وملابسها الداخلية؟!..

صعد سلم المكتبة وأستأذنني في تلقي منه بعض الكتب، وقفت تحت يديه أنتظر وظننته أتم كلامه حتى أحضر لي كتاب عتيق وظن أنني لن أستطيع حمله عنه فتراجع ثم استطرد؛ أتدركين أن من يطالبون بحقوق المرأة كالنباتيين، حمقى لا يدركون أنهم يقتلون ويأكلون كائنأت حيه في صورة نباتات مثلها مثل الحيوانات، التي هي أيضًا تنبت وتتكون من رفات الحيوانات وسمادهم وروث تلك الحيوانات التي لا يأكلونها، بالإضافة إلى ملابسهم وأوانيهم البلاستيكية، كل هذا نتاج حيوانات منقرضة من ملايين السنين، هي ذات الحماقة حين ينسون أن الكون متصل لا منفصل، وكذلك الرجل والمرأة، فالرجل نتعبره هو الحيوان والمرأة هي النبات، لا منافسة بل تكامل..

هبط لي وقبل رأسي وأنا أضحك على أخر كلماته؛ هي حالة واحدة يشرق فيها كوكب الأرض في توقيت واحد، ذلك حينما تضحكين لي..

"6~المساواة "

" لو كانت المرأة رجلًا لغلبته بالمنطق"

لا يعرف هل يسخر منه القدر أم لا؟!، ففي نفس الحين الذي شرع في تأليف كتابه شيطان المرأة، وفي أوج نشاط قصصه التي جلبت عليه الذم والكره، كقصته المشهورة أنذاك "إقلَعي بَراحَتْيّكِ"، والتي اشتق اسمها من المعنى الدارج، والمضاد لحمالات عدة، صاغتها الحقوقيات في "من حقي أن ألبس براحتي"، فأختار هو اسم القصة ليكون له وجهان ويقرأ بمعنين، فمن يعرف اللغة العربية جيدًا سيقرآها بمعنى أتخذي قرارك بكل حرية، أما الذي يجهلها فيسجدها أخلعي ملابسك بكل أريحية ويتهمه بدعوته للعري، أما الذين قرأوا القصة، فانقسموا على عدة أوجه، أبرزهم أنه يحارب ارتداء النقاب والحجاب لجعله البطلة تقرر خلع النقاب والحجاب بعده، ولديها حجتها التي تناقش بها صديقها والذي يتخذ المنبر المعاكس لرأيها، وأخرون اتهموه بأنه يتفه القضية، حيث أنه ختمها بأن هناك قضايا أهم بكثير للمجتمع من ارتداء الفساتين ومن القلع واللبس..

وخروجًا من هذا يجد نفسه أحد مديرين مشروع يدافع عن حقوق المرأة، هدفه تعلية صوت النساء في وجه اسكاتهن وتهميش قضاياتهن، ويجد نفسه هذا العدو للنساء والرجل الذي لا يحبذ مناقشة أكثر من امرأة، في الصباح يعمل مع أكثر من خمس وعشرون فتاة في العام الأول وثلاثون في العام الثاني..

أنماط عديدة من الفتيات قابلهن وتحدث معهن عن فكرة المساواة، مثلما أفتعل النقاش في أول تناول للإفطار وطرح عليهن، ما الفرق بين العدل والمساواة؟!..

تجمع على أثر السؤال أكثر من عشرون فتاة حوله وتشتتن في تعريف المعنيين، ومن ثم انتصفن في اختيار العدل أم المساواة كالحل الأصلح للمرأة، ولكن دون معرفة السبب فوجدها فرصة لبث نظريته عليهن؛ المساواة ظالمة للمرأة فكيف تصبح المرأة كالرجل والرجل كالمرأة، أما العدل فهو تكافؤ الفرص بينهما مع مراعاة أن الرجل رجل والمرأة مرأة..

دعابته إحداهن؛ المرأة مرأة والرجل رجل.. أذكرها في الأول.. لا تكن عنصري..

ضحك مسترسلا؛ من فينا عنصري إن مطالبتك بحقوق المرأة فقط دون الرجل هو عين العنصرية .. ثم أكمل ضحك هو الباقيات..

لم يعجب التفسير الكثيرات بل فعلن كفعل الجاهلية هذا الذي وجدنا عليه أباءنا، واتهمنه بأنه يجهل كل شيء عن حقوق المرأة، هذا لأنه مجرد أنهقد غير المفهوم، لم يرغب في إثارة مشكلة مع تلك الفتاة العنيفة في الرد باليوم الأول، فهو لم يروقها منذ الجملة الأولى التي قالها مازحًا عن المرأة والمنطق، عينها تقول إنه على حق، لكنها لن تقبل كون رجل أي كان من هو أن يكون أحق منها ويغلبها في المنطق، حتى قال؛ المساواة تصل بالمراة أنها تقلد الرجل حتى لو كان وغدًا خائن، إن كان هو خائن فكيف تجد لها الحق أن تخون مثله؟!، وإن كان هو سليط اللسان تقلده في قلة أدبه، وإن كان أحمق يضر نفسه بالتدخين أو المخدرات أو الخمور أو الزنا فهي تريد شف أعماله القذرة كأحقية لها بالمساواة، هل نحن نصلح المجتمع أم نتنافس على من يفسده أكثر؟!، والأدهى أنها تعتقد بأن هذا انفتاحا وتحرر، وآي خيبة سينزلق إليها الرجل ستجري وراءه المرأة بحماقتها المعهودة وستسبقه فيها لكي يكون لها الصدارة، ونسيت دورها الأساسي أنها هي التي تقيم المجتمع وتحسن سلوكه وتستقيم بالرجل، إنهن يطالبن بالمساواة مع الرجل في الفحش والفجور، ثم تجلس تنتقد الرجل الشرقي وفي ذات الوقت يسقط الرجل من نظرها إذا تنازل عن شرقيته، أي امرأة نتعامل معها، بل أي كائن هذا؟!..

قطعت حديثه المستنكر من البعض والشيق إلى أخريات؛ مديرة المشروع الألمانية؛ نموذج جديد عليه من النساء، فهى امرأة عملية بدرجة آلية، لا تضيع شيء إلا وقد استفادت منه، لا زمن يمر إلا يعود عليها بالفائدة، بلغت الأربعين لكنها بجسد فتاة في العشرون، تنتهي من محاضرتها وتجلس معه لا تناقش سوى تقدم العمل وتطلب مهام يفعلها لها، وبعد الانتهاء من المهام، تطلب اصطحابه لها لأي مكان هادئ يختص بالطعام الشعبي، وتلعب دور الصديقة الحميمة معه أحيانًا..

في الصباح يكرر الأمر أثناء راحة تناول الفطار ويجتمع بعضهن حوله ثم تأتي الباقيات؛ إذا سألته إحداهن عن سبب عداءه لقضية المرأة ابتسم وأجابها بلطف؛ لايوجد ما يسمى قضية المرأة، المرأة في حد ذاتها قضية وإنما مشكلة المرأة مع نفسها أولا، إذا أردتي التوعية الحقيقية فإبدأي بالمرأة، قدمي اقتراح بعمل سكن للفيتات المغتربات أو المتعرضات للإهانة والتعذيب في بيوتهن، قدموا مشاريع حقيقية ملموسة، بدلًا من صرف الأموال على أوراق وحملات ورسومات وأفلام تفتح عقل المرأة وتسجنها في عجزها وقلة حيلتها، وفري لها الحياة العادلة، طالبن بعمل مشاريع نسائية للعوائل والأرامل، المطلقات والوحيدات والعانسات والآنسات، الطالبات والفقيرات..

ـ هذا يحتاج جمعيات ومؤسسات كبيرة وليس في مقدور أي تجمع نسوي فعل مثل تلك الأمور، عدلت نظراتها تلك الفتاة الهادئة التي لم تتحدث كثيرًا إلا لتفتح معه أفق أخرى من الحديث؛ لو

أن كل جمعية نسائية وفرت من مجهودها وإمكانيتها ومقراتها وقامت بتوجيه فكرها للناحية الصحيحة من القضية لاستطعن الوصول بالمرأة والفتاة إلى الأفضل..

- وما مشكلتك مع قضية المساواة؟!

تلك الفتاة الجامحة عادت تعاديه في حديثها معه كأنه يدوس على قدمها كل صباح؛ المشكلة أن المرأة هي التي استرخصت نفسها منذ البداية واختارت لعب الدور الثاني لأنها رأت أنه بوجودها في الخلف هو مكمن قوتها ويمكنها الطعن من الظهر، ولهذا لا نجد نساء كثيرات مذكورات في التاريخ برغم أنهن من صنعه وربما لأن من يكتب التاريخ هم الرجال وتركت الرجل يكتب التاريخ حتى لا يكشف أحد سرها، فلماذا وبأي منطق اليوم تطالب بالتسابق مع الرجال أو تتحازى معهم، كأن السلحفاة تطالب بأن تكون أرنب، أو القمر يتمنى تمثيل دور الشمس، فلم يتغزل أحد مرة بالشمس ولكن الجميع تغزلوا بالقمر، برغم أنه ليس المصدر، كذلك هي المرأة..

كتب هذا المثال كإهداء لي على أول صفحة كتاب يتحدث عن مساواة المرأة بالرجل..لماذا؟! وأهداه لي في كيس أسود، الكتاب الثاني له وقد كنا وقتها في ذروة علاقتنا وبداية الحديث المكشوف عن ما في قلوبنا، وبداية أيضًا التدقيق في تفاصيلي واتهامي في بعض الأحيان إنني مثل باقي النساء، وظلت تلك الكلمة عالقة تكبر يومًا بعد يوم طوال المرحلة التالية لارتباطنا ورعبًا أحيانًا، وتوجس من الوقوع في مثل هذا الشرك وتكون الحجة لافتراقنا، سأقتله لو حجته في البعد عني أنني بعد كل هذا الوقت من الاستماع لاتهاماته لبني جنسي وتجنيه علينا أنني مثل باقي النساء الحمقاوات اللاتي قابلهن..

استمر الأمر على هذا المنوال قبل شكوة الفتاة إلى المديرة الألمانية التي تستغيظ من نظرياته الغريبة والمستحدثة على أذنها الصغيرة، قبل تلك الشكوى اندفعت إحداهن والتي بدت أكثرهن خبرة في الحياة؛ الرجل خائن وعينه تستحق رصاصة على كل نظرة ينظرها إلى فتاة أخرى غير المرأة التي معه..

تبسم في هدوء أعرفه جيدًا كلما اندفعت في وجهه كأنه يعذر المرأة على اندفاعها ويحب فيها قوتها في الحديث ومطوح رأسه بعيدًا ثم نظر إلى الأرض؛ لو الرجال تذكرن جيدًا أن أجساد النساء مقززة بقدر أجسامهم، تعرق وتفرز وتخرج مثلهم ما استماتوا عليها، لكنها الحكمة أن ينسى الرجال هذا وينشغلن بجمال النساء، للحفاظ على النوع والمتعة..

وتوجه إليها بضيق عينيه الجذاب؛ أتعرفين لماذا يخونك الرجل؟!، أو لماذا يأتي الوقت ولا يركز معك أنت فقط، ويبحث عن حاجات أخرى في نساء آخريات، هذا لأن المرأة تحب الذي يلوعها ويجلسها على نار هادئة، والتي تحس أنه فارسها أو مستفزها وليس الذي يريحها ومهتم بها لا بل على العكس، المرأة حين تجد الرجل مخلص وطيب تتأمر وتتآمر عليه، تتفرعن وتتسلط ومن الممكن أن تلغيه من حياتها تمامًا..

يبدو أنه فعل بك مثل هذا من قبل" ضحكت بسخرية" لأنك لم تكفيها وهي لم تحبك، حاولت إغاظته والتلميح أنه عيب رجل لا منقصة في شخصية المرأة مثلها، اعتدل لها حيث كان جانبه في مواجتها وهي قصدت الجلوس خلفه؛ لو فعل الرجل مثل هذا ماذا ستقولين عليه؟!، لماذا عندما تجرح المرأة الرجل أو تتركه يكون فعل عظيم وتحييها الأخريات عليه، أما إن ترك أو جرح الرجل امرأة يصبح نذل وكل الرجال أرذال؟!، من حق المرأة أن تسب النساء وعلى العكس ليس من حق الرجل أن يشتكي من امرأة أو يذكرها بسوء، لماذا تعطي المرأة لنفسها الحق في اتهام وسب كل الرجال وهي تتحدث عن تجربة واحدة ومن ثم تتهم وتعادي وتثور في وجه الرجل الذي يسب كل النساء، بعدما جرح مرة وأثنين وعشرة..

إن أخطأت المرأة يقال ضحية مجتمع أما الرجل فهو شيطان رجيم، وكلما حدثت امرأة عن عيوبها يكن ردها أنا هكذا، أنا حرة، نعم أنا حمقاء، نعم أنا عاهرة، نعم أنا كذا وكذا، دون أي وعي واستهداف واستماع للنقد الذي لا يبغى سوى إنقاذها فأي كائن يتمنى من ينقذه ويعدل عليه حياته، فلماذا تتحول المرأة مع الوقت إلى إلهه لا تخطئ ولا تنتقد أجيبني رجاء؟!!..

قام وعدل الكرسي الذي كان يجلس عليه بالمقلوب، حينما وجدهن قد فتحن أذنهن على أخرها؛ وعلى نحو أخر، المرأة قد تجوع وتصرف كل مالها من أجل مظهرها فقط، حتى تعجب الرجال والنساء وتكون أجمل من رأوا، أما الرجل فقد يحصل على المال الكثير أولًا ثم يهتم بمظهره، ووراء المال تأتي النساء،فالمرأة تجري وراء الرجال ذو الهالة أو الذييهتم جدًا بنفسه وتظن أنها هي الوحيدة التي تقدر على لفت نظره وتمنعه عن بقية نساء العالمين، وهي مجرد واحدة من أدواته، تترك الطيب الهادئ وتذهب للسيئ والفاسد وتظن أنها ستصلحه ولكن كانت غيرها أشطر منها وهزمت..

تتهمون الرجل أنه يسيل لعابه أمام المرأة رهيبة الجمال، بينما تنهار جميع النساء أمام الممثل الجميل حتى لو كان يهين المرأة وأم المرأة في مشاهد أفلامه أو لم يعترف بأولاده من ممثلة أخرى..

صمتن صمت الأصنام فاستطرد بأية كلمات تجول بخاطره؛ ولهذا العصر الذهبي لمغنطة النساء حول الرجل هوالثلاثين، يكون الرجلقد أدرك نفسه والذي يليق عليه وعنده شجاعة في الانطلاق بنجاحه في مجال معين وخلق طريقة لجذب النساء، وإيجاد شخصية منسقة على الأرجح شبيه بفنان ما، ويتكون عنده من الخبرة في الحياة، فيلفت نظر الفتيات الصغيريات الأصغر بعشر أو خمس سنين وما بينهما، وتظل المرأة في سنها الصغير "ملطشة" لتجارب مخربة ولا تتعلم، فتجدها بين تكبرها على نفسها وبين تكبرها على كبر سنها وتكبرها على الرجل الذي في مثل عمرها يضيع منها عمرها، العيب ليس من الرجل إطلاقًا، كل الخيوط في يد المرأة وهي التي تختار الظهور كحمقاء، المرأة لو أعطت فرصة للرجل الحقيقي ستعيش سعيدة، لكن هي تشتهي الركض خلف المجهول ..

أكثر من مرة يكرر أمامي هذا الرأي، وكنت أقاطعه في بعض الأحيان، أما تلك الليلة أوضح لي ونحن نجدف في زورق سباق تلبية لرغبة مني لتجربته؛ النساء كالأطفال الذين لايقدرون معاناة وانشغال الأمهات ومشاكلهن، واحتياجاتهن، لا يقدر النساء معاناة وانشغال ومشاكل وحاجات الرجال،الأمر متشابه لدرجة أنك ستجدين أنها سلسلة قهر أو تفهم، فنزولًا سنجد بأن كل كائن يقهر من أسفله في السلسلة، وسنلجأ إلى أن يتحمل الأعلى في السلسلة الأضعف والأسفل، الحل في النهاية إلى التحمل والمشاركة وإيجاد العمل الجماعي بين الرجل والمرأة لا العداء، فلو حدث بيني وبينك مشكلة سنسقط بهذا الزورق الرفيع الذي يشبه العلاقة بين الطرفين، ولو تأخرت أنت في الخلف عن تجديفك عني سنحيد ولو غيرت طريقة تجديفي دون مراعاة قوتك وتحملك سنغرق..

لقد رأيت صورته لعامين متتاليين وهو يكرم بين أكثر من عشرون فتاة وامرأة، هو الرجل الوحيد بينهن، وهذا ما جعلني أن أثق في حديثه وخبرته، أن أثق في رجل يعادي كل النساء حتى المرأة التي بجواره، فقد سرد لي عن تلك الفترة أنها أفادته كثيرًا في قياس مدى الشق العميق الذي يخلفه الجهل بالعلاقة الإنسانية داخل المرأة، ورغبة المرأة في التحرر وعدم فهمها لفتنتها في الحياة، ذات مرة تقمص صوت الداعية وقال، الأمر بسيط جدًا ولكننا نعقده، جسد المرأة خلق جميل ليكون فتنة الرجل والمرأة، الرجل في ضعفه أمام جمالها، والمرأة في إبراز هذا الجمال، ولهذا ستظل قضية المرأة حريتها في جسدها، وسيظل الرجل يلهث وراء هذا الجسد، والحل هو تجاهل الرجل للمرأة تمامًا وهذا سيكون نتاج كل ما يحدث الأن من

صراع، وسنجد أنفسنا في الصباح باتت النساء يبحثن عن الرجل وهن الذين سيركضن وراءهم، وغدًا سنجد الرجل تعود على رؤية جسد النساء ولم يعد لديها أي جديد تقدمه حتى لو وصلت للسرير فسيمل هذا أيضًا كما يمل الزوج زوجته، وتمل الزوجة زوجها..

وهذا تنقله مواقع التواصل الاجتماعي بصورة ساخرة لكن قريبًا سيحدث على أرض الواقع، إننا وصلنا إلى أن النساء تسخر من كونها امرأة قوية مستقلة وتتمنى الزواج فقط، والرجوع لكنف بيت أبيها أو الحصول على زوج خليجي لتنعم بماله والتسوق والسفر بحرية، أي سخف أوصلتنا له النساء الحقوقيات، فلقد عدنا لأول قضية ناهضنها وهي زواج القاصرات والفتيات من عواجيز الأغنياء، وبيعهن سبايا لمن يدفع، أما الأن وصلنا أن تلكم الفتيات هن الذين يتمنين هذا؟!!، ويتراقصن في مقاطع مصورة على مواقع التواصل، فإلى أين نذهب إلى أي جحيم ننحدر إليه برغبتنا وشهوتنا العارمة..؟!

"7~ النذالة "

لم أكن الرجل الذي تعود من أجله امرأة..

هكذا كان يعتقد في نفسه وأنه ليس بالوسامة التي تندم عليها إمرأة، وأنه بدلا من أي يعوض ذلك باللطف كان يحمل الضغينة والاستنكار من أفعالهن وكشف مستوراتهن التي هن يعرفهن جيدًا أنها عيوب فيهن لكن ما بيدهن حيلة ليغرينها، كنت مرارًا أقول له أنا امرأة وليس بيدي ما أنا عليه، لا طريقة تفكيري ولا نهج مشاعري ولاسبيلي في التعبير عن ما بداخلي..

كان يحمل أكثر من قلة وسامته أمام قلوب النساء، وهو عداءه لهن، أو حبه الزائد لمثاليتهن أو رغبته في جعلهن جميلات وعاقلات معًا أو وإرغام العالم على التفكير كما يفكر هو ويسعى لتحقيق مثل هذا الحلم الذي لم يحلم به نبي حتى، هو كان يحلمه هو..

"هناك طريقة ما ستجعلنا أنا وأنت سنتفاهم ويجب أن نجدها معًا" ..

كانت هذه هي الميزة العميقة فيه التي اكتشفتها أنا وهي أنه مرن حتى ولو على المدى الطويل ويحتاج لاكتشاف الميزة هذه الصبر، وغيري لم تصبرعليه ولم تعطيه الفرصة لأن يتجدد، كان يردد دائمًا؛ طالما أنا رجل مخلص ومحترم ومثقف وغير عدائي فاستحق أن أحتمل واكُتشف من المرأة التي بجواري..

فجأني في صباح يوم عيد ميلادي، الذي يأتي في أوخر تشرين الأول، أننا سنسافر إلى أوروبا في المساء، ويجب علي إعداد حقيبتي وإخبار من علي إخبارهم، استغل أنني بلا عمل وبلا أي ارتباط في حياتي سوى به، وكنت أعرف أنها ستكون حتمًا رحلة نقدية وسنمضي الوقت في الحديث عن كتبه..

ونحن نصعد جبل الثلج في طريقنا إلى منطقة التزلج سرد لي حكاية عجيبة عن إخلاص رجل لزوجته التي حينما ماتت دفنها في حديقة منزله، وزرع عليها خضروات وفاكهة حتى تظل تسري في دمه، حينما فعل الرجل هذا كان في سن صغيرة ثلاثون عامًا تقريبًا وظل أربعون سنة يأكل من تربتها حتى مات في السبعين..

واستغلها فرصة ونحن نعاني من نقص الأوكسجين في صدرونا، وحدثني عن مثل هذا الشعور الذي يأتيه بعد قصص لم يفهم ماذا جنى منها ولماذا حدثت له؛ فذات مرة نصحه صديقه بأن لا يجلس خلف العمل والكتابة وينسى نفسه، ويبحث عن فتاة، هناك واحدة فقط أعتقد أنها أطيب فتاة رآها، لم تكن جميلة ولكنها كانت لطيفة، كان يصاحب نساء غريبات الأطوار هكذا يقول على نفسه دومًا، كان مجبر للخواطر ويصعب عليه تلك الفتيات الذين توسطت بهم النظرة للجمال فيصنع لهن قصة حب كالجميلات الباقيات، وكما كان يكرر عن تلك الفتاة أنه أعتقد أنها أطيب فتاة عرفها، لم يكن بينهما سوى صباح الخير ومساء الخير كلما رآها تمر من غرفة إلى غرفة، هي أحد الفتيات اللائي عملن معهن في مجال المرأة، أول ما رأى منها غيرة استعد للحديث معها بعدما رأت ملاطفة فتاة أخرى له، فنظرت لهما بصدمة أنكرتها بعد ذلك عندما حدثها عن أن هذه بداية لفت نظره لمشاعرها ناحيته، وكانت بعد تلك الواقعة رحلت وتركت المكان ولم يعلم أحد بالسبب..

كلمها ذات ليلة بعد عام تقريبًا ووجدها تجلس في البيت بلا عمل وبلا هدف، في غضون أيام جهز لها العمل والسكن القريب منه، وساعدها بكل ما حوت الكلمة من وقوف بجوارها معنويًا وماديًا، إلى أن وجدها تتهرب وتبتعد وأتصلت به صديقته التي جلبت لها العمل تشتكي من الفضيحة التي سببتها لها مع أصدقاءها، حاول مرارًا الاتصال بها لكنها لم تجيب لأيام ولما أجابت طلبت منه عدم الاتصال بها مرة أخرى وأنه لا شيء بينهما، لم يحدثها في أمر الأموال التي سحبتها منه والتي لم ترجعها ولم تذكرها حتى، حتى جاءت سيرتها في حديث لهما ذات مرة وقالت حينما تحصل على المال سترده له، بعد عدة شهور أتصل بها لرد المال وحاجته في مساعدة أحد المحتاجين، فقابلته بالشتم والسب، تحفظ على رد الإهانة والتهديد، وجلس طويلًا يسأل نفسه في ماذا أخطأ!!..

ولم يمر العام وظهرت في حياته فتاة سمراء ساحرة، تعمل في مجال الصحافة وعروض الموضة، بعد عدة أحاديث طلبت منه أن يظل جوارها ويدعمها، هي تمر بمشاكل عدة منها النفسية والصحية والعملية، دعمها وظل بجوارها أكثر مما طلبت، الاتصال طوال اليوم غمرها بالاهتمام والكلمات الدافعة للنجاح، وفي إحدى المرات بدر منها ما لفت نظره أنها تكن له عواطف وفتون بين ثنايها، عندما تحدث لها عن أن هناك امرأة في حياته لا يعرف كيف يعرف أنها تحبه أو يكشف مشاعرها فتعجبت كأنها حبيبته، فهنا بدأت القصة وأخر هاتف بينهما كان ليلتها، بعدها تصرفت بشكل غير طبيعي لم تعد ترد هاتفه ولا تجيب على أي وسيلة، حتى ابتعد، وعندما عرفت بأنه سافر إلى روسيا وعاد، وجدها راسلته كثيرًا، وقتها لم يسألها عن شيء غير هل ترغبين في العودة، وقابلها فقالت أكثر من سبعة عشر مرة أحبك، وبعدها عادت لعادتها لم ترد على هاتفه إلا المرة الأخيرة جعلت صاحبتها ترد وتقول له إنها في اجتماع ولما تنتهي منه ستتصل به ولم تتصل ولم يتصل..

وكم من قصص لم يسردها بعنونها لي بأنه السبب في عدم انتحار بعض الفتيات والنساء في حياته، وأنه هو الذي أعطاهن الأمل في استكمال عيشتهن، سواء بتفتيح عيونهن على جمالهن الائي لا يروه، أو بوهمها أنها مازالت امرأة تحب ومرغوبة، والنتيجة كانت أن كل واحدة منهن مثل الغارقة توًا ما تجده قشة أو منقذ يسحبها من الغرق تدوس عليه وتخرج إلى الشط وتتركه وحده في بحر النذالة..

دعته بعض النسوة للنيل منه، كما دعوتموني لكي أحكي لكن قصتي معه..

بعض جميعات النساء الحقوقيات أنذاك التي برزت في شبابنا، بعدما نشر كتابه شيطان المرأة، دعونه إلى مؤتمر صحفي وندوة نقاشية حول تمييز المرأة بمصطلحات ضعيفة أو مشينة، كإمرأة بمئة رجل، أو زوج الست..

استجاب وأخذني معه وكنا في تلك المرحلة لم نقترب إلى حد الصداقة بل صادف أنني كنت في مكتبه آخذ توقيعه على كتابه وأناقشه في بعض النقاط التي وردت به..

صعد مبتسمًا، لم أفهم خطته بمصحابتي معه إلى تلك الندوة إلا عندما نظرت كل النسوة لي متسائلات، عن من تلك الخائنة التي أتت خلف يد عدو النساء وتحمل كتابه أيَضًا!، أفتتح حديثه قائلًا؛ إن الرجل هو الذي اخترع كل الأشياء الثمينة، وأشهر الناجحين رجال وأشهر العباقرة رجال و حيازة جائزة نوبل تشهد على ذلك، حتى أن محرر النساء هو رجل ..

قامت إحدى الحاضرات؛ ومن ولد هؤلاء الرجال ورباهم وعلمهم وحرم نفسه من كل شيء من أجلهم..

~ هذا إعتراف منك أن المرأة للتربية وليست للحياة العملية ومناطحة الرجال في المجتمع، انبعجت وجنتيها، وشدتها التي بجوارها لتلعثمها، فاستكمل؛ هناك رجال تربين في كنف أمهاتهن وخرجن فاشلين والأمثلة كثيرة في التاريخ، كملوك أوروبا فنصفهم فشل بسبب تسلط أمهاتهم والبعض بسبب تدليلهن، والأكثر لطمع المرأة سواء كانت زوجة أو أم، وكثيرًا من الرجال نشأوا أيتام رباهم أبائهم أو دون أب وأم وخرجوا عظماء فتيات و فتيان، وغيرن العالم سواء بالدين أو بالمثل العليا أو بالأدب والشعر..

ترونقت إحدى المنظمات وتقدمت لتحازي أول صف؛ أستاذ عدو النساء، ضحكت البقايات، وهو ابتسم أيضًا؛ لقد جئنا بك هنا لتحدثنا عن وجهة نظرك في لعب اللفظ مع المرأة وتحقيرها والنظرة الدونية لها وما يتقرب بها وليس للتحقير منها أكثر والتفلسف علينا..

سيدتي؟!، إذا كنتي لا تريدين أن ينظر لك أحد نظرة دونية فانتقي ألفاظك وحسني مخارج صوتك وطبقتك وتحدثي بلباقة، ابتسمت أنا في تلك اللحظة ورمقتها بدهاء، لأنها جاءت به لنفسها حينما قالت متعجرفة لقد؛ جئنا بك..

وعدت برأسي له فوجدته يقول؛ المجتمع لا ينظر للمرأة نظرة سفلية ولا يعتبرها عيب أو عورة للتقليل منها، بل المرأة التي تنظر لنفسها على أنها ناقصة، وأؤيدكن في أن المجتمع ظلم النساء وقلل منها في المعاملة والنظر لضعف المرأة على أنه عيب تلام عليه، لكن لا تخرج المرأة عن رونقها وكينونتها وتتحول لوحش كاسر وعيب وعورة فعلًا؛ حتى تثبت العكس، لأنها فشلت في إبراز ضعفها كقوة، لم نجد أحد يلوم الزجاج أنه ليس مثل الحديد، ولا يستخدم الحديد مكان الزجاج، فالأخير يرينا مناظر العالم أجمل ويدخل لنا ضوء الشمس، أم الحديد يحبسنا ويمنع عنا الحرية وضوء النهار، فأي المادتين أفضل، كل منهما له استخدامه ودوره، فلا ثبت الزجاج في مكانه لولا الصلب ولا تجمل الحديد لولا احتضانه للزجاج، هذا بقوته وذاك بهشاشته، هل يلوم أحد الزجاج على أنه هش!!؟..

بعض النساء أردن التصفيق، وتراجعن خوفًا من المنظمات التي تحركن كنساء آليات بعيون ليزرية تكشف المصفقات، إلا أنا ـ صفقت وضحكت بصوت عالي منبهرة من نظريته، فعاد يوضح وهو ينظر إلي حتى أصمت؛ اعترف بالفداحة والخزي في اعتبارنا أن ابن أمه أو زوج الست أو أعضاء جسد المرأة في السب وبن المرأة؛ سبه مهينة وبن رجل مدح فاخر، كل هذا من عمل الجهل والخلط بين معنى العورة الحقيقي، معنى الحرم والتحريم فإن كان لديكن جوهرة ستضعنها في البيت وتقفلن عليها خزائن، فكيف لو تعيشن في مجتمع لصوص هل ستتركي الجوهرة في النافذة؟!..

عمت الأحاديث الجانبية في القاعة؛ حسنًا حسنًا، لا أدعوا للنقاب ولا لحبس المرأة في البيت، أنا فقط أوضح لماذا تحولت المرأة من فلان بن فلانة إلى العيب في معرفة اسم الزوجة واسم الأم، والحصول على اسم منهما هو انتصار ذكوري، هذا لأن المجتمع أصابه مرض متفشي، وبدلًا من معالجة المرضبالنصح والتروي، اخترعتن مبدأ العلاج بالتصادم، دون معرفة أن العلاج بالتصادم هو فقط للمجني عليه وليس للمريض الجاني..

رفعت إحدى الناشطات القائدات يديها وسألته بحدية؛ لماذا تقول إن المرأة لا تستعمل عقلها وأنها لا تملك سوى فص الكيد وكما أنها خبيثة؟! يوجد فقط شغل النسوان وكيد الحريم ولا وجود لذلك عند الرجل..

انتبهت له وهو نظر لي في ذات اللحظة، فقد كنا على مشارف التحاور في تلك النقطة التي أثرها في كتابه قبل أن يحين الموعد، وهو لم يحب التأخر عن موعده فيجدوها حجة عليه؛ هل تعلمين قصة الأميرة ديانا.. لقد ذكرت مقطتفات منها في كتابي سأعيدها عليكن..

ديانا الطفلة المدللة التي قالت على نفسها في حديثها المسجل المعروف، إنها كانت أنانية في صغرها مزعجة كثيرة النواح، لما تكبر تلك الطفلة. لم قد تكون كما صدرت لنا صورتها على أنها فتاة طيبة وخجولة؟!، لقد افتعلت ذلك لتوقع بالشاب الملكي الذي يزور بيتهم من حين لأخر، ديانا كانت تعرف إلى ماذا سيؤول هذا السبيل؟!، كانت تنظر إلى جوار الملكة، لم يدفعها أحد في مصاحبته ولا التقرب يومًا بعد يوم من ابن الملكة، ولا أحد يستبعد أنها يومًا ما أراد ابن الملكة ليحصل على قُبلة من شفتيها بعدما اقتربت منه كثيرًا وتدللت عليه، فقالت الجملة النسائية المعهودة لإيقاع الرجل في شباك الزواج؛ قبلني ولكن بعد طلب يدي للزواج..

لا نستبعد أنها ظلت تخطط كل ليلة هي وأخواتها وتتصنع التردد حتى يدفعها الجميع إلى قبول الزواج من وريث العرش، ويكون بيد الجميع لا بيدها، ويكون هو الذي سعى لذلك، إنها فتاة

وكم رآينا في التاريخ والأفلام مثل هذا الكيد من النساء والخبث الذي يجعلها تصل إلى ما تريده، من كليوبترا إلى زوليخة امرأة يوسف، وزوجة ملك أنجلترا وشجرة الدر وملكات السلاطين العربية وهلم من هن كثيرات..

لقد كانت ديانا تعلم كل شيء مقبلة عليه وكانت تحلم به كل ليلة، أن تكون أميرة العالم الحديث، وتصنعت كل شيء رآيناه وأحببناه فيها، لقد كانت تدرك جيدًا الحياة المقبلة عليها ومع ذلك بررت فشلها في تعلم الأمور الملكية وطقوس البلاط، بأنها تقول إنهم أجبروني عليها، وعلى الزواج وأنا لم أخلق لهذا، وأريد أن أعيش بحرية، لقد عادت الطفلة المزعجة التي كانت تبكي على كل شيء، إن كان كلامي خطأ فلنراجع صورهما ولحظاتهما الأولى،استغلت وجهها الملائكي كأي امرأة تشعر بأن فيها شيء من الجمال فتستغله لتصل إلى حيث ما تريد، استغلت حتى مرضها لكي تبدو ضعيفه وهشه أمام زوجها وأهله وحولت حياتهم إلى نكد وإلى "دراما كوين" على حد وصفها، أنا لا أبرر خيانته ولكن هل لو أنتن مكانه لن تتركوا هذه الحياة لمرأة أخرى تهتم، الواحدة منكن تترك صديقتها أسرع من مصاحبتها لها، المرأة قد تعشق صاحبتها حد العناق كل خمس دقائق وعندما تدوس لها على طرفحذاءها ترميها بأقذر الاتهامات، وتكسب واحدة أخرى كعبدة لها حاش لله بعدها بيوم، كم تصارع امرأتينعلى رجل؟!، وكم امرأة خطفت من أخرى رجلها، الرجال خائنين، - إذن - ، مع من يخون الرجال نسائهن، مع كائنًات فضائية أم مع نساء أخريات؟!!..

ديانا أحبت الأضواء، وكانت تحكي عنها لصديقتيها وزمليتيها في السكن، ثم لماذا طلبت من والدها نقلها للعاصمة بجوار حبيبها، لأنها تعلم جيدًا ابنة التسعة عشر عامًا أنها ستكون تحت أنظار الصحافة والعدسات، لقد اعتقد العالم أن لديها ذكاء في امتصاص هجوم الصحفيين على عكس بعض المشاهير، ابتسامتها وهي تخرج وتدير رأسها بعيدًا عن العدسات، هي فرحة مكتومة ظهرت عن غير قصد منها أمام الكاميرات، فرحتها بزواجها والتي أدعت عكس ذلك، وأرادت أن تسجل أمام العالم أنها قلقة وغير مرتاحة بينما تلتقط عدسات أخرى فرحاتها المكتومة بما وصلت إليه، وأي فتاة في مكانها كانت ستفعل أي شيء حتى تكسب ود الشعب وحبه وأقصر طريق هو فعل الخير واللتقاط صورًا لتصدير الصورة الملائكية عنها، إنها أنجبت طفلين ياسيداتي، ولو قولنا أن الطفل الأول فرحة الزواج أما الثاني ماذا يسمى!، لقد كانت كما سردت هي في تلك الفترة في عز مرضها ونكدها وقلقها من زوجها، هل هذا يجعلها تسلم له نفسها وتنجب منه طفل وكلكن تعلمن شكل تلك العلاقة التي تنجب ولد..

"تنحنحت القاعة وغضبت بعضهن، بينما أنا كنت أفتح فاهي من اندماجي مع تحليله الذي غير نظرتي للقصة تمامًا"؛ ثم لم تكتفي بذلك بل بعد الطلاق سربت معلومات لأحد المؤلفين الذي صنع أسرار ديانا في كتاب قرآه العالم كله، ولأن العائلة الملكة حكيمة لم تلومها حتى ولم يقوم زوجها بفعل دفاعي عن نفسه، وتنهي علاقتها بهما بحديث تسرد فيه كل حماقتها ولو أننا أمعنا العقل في حديثها لكنا رأينا المرأة فيها على وجهها الحقيقي..

وأظن أن نهايتها المأساوية كانت تستحقها، لم يتسبب فيها سوى أنانيتها وخبثها، لأنها لو كانت مظلومة لانتهت حياتها نهاية هادئة، وأنها لو ضعت حزام الأمان لأنها كانت في تهديد والسيارة تسير بسرعة عالية ووراءهامتعقبون ومتربصون لكانت نجت من الحادث، لكن أنانيتها دفعتها إلى تعريض كل من معها للموت حتى الرجل الآخر الذي أحبها..

وكما أشار الذي تحدثوا في إحدى التسجيلات النادرة عن مقتلها وكان من الشعب الذي أحبها؛ نحن من قتلها ليس المصورين ولا الصحافة بل نحن، لأننا من ينتظر معرفة أخبارها وهم يبيعون لنا صورها..

وخروجًا من هذا نحن المسؤلون عن مقتل المرأة وعن ضياعها بين حقوقها وبين المجهول الذي تسعى وراءه، فقلن لي ماذا تريد المرأة حقًا- هي نفسها لا تعرف ما تريد؟!!

انفعلت إحدى الحاضرات عليه ..

أنت جاهل..

الجاهل هو من لا يجيب على السؤال ليس من يطرحه..

اندفعت في التصفيق أنا وبعض الحاضرات في الخلف، فيما كان ينزل من على المنصة، ولحقته ممسكًة بزراعه كزوجته، بين الاتهام بأني قبضت منه لألعب هذا الدور، لكني لم أقبض شلن واحد، أنا فقط تعلقت برجل، حتى لو هذا الرجل كان ضد جنسي وضد النساء وأنا منهن، فهو يستطيع إثبات نظريته وأما هن فلا..

"9-الغيرة"

استيقظت على هاتف صديقة لنا، كاتبة روايات وناقد معروفة تجالسنا معها كثيرًا، اتصلت تخبرني بما فعله عدو النساء هذا الصباح، في تلك الفترة لم نكن نتحدث أنا وهو لقد حدث بيننا شجار بسبب غيرتي، ماذا سأكون إذن إن لم أغار فأنا امرأة!!، ثم هو الذي بدأ قلة الثقة والنظر لي من ثقب باب الغيرة المغلق بيننا، وأحضر طقوس لعنة الغيرة وأوقد تحتنا النار عندما شرع يسألني عن كل رجل أتحدث معه خلال اللقاءات التي نحضرها، لاحظت توتره في تلك الفترة، لكني لم أسأله عن سبب هذا التوتر، وربطت بينه وبين تلك السيدة التي ظهرت في حياته لقد كانت تكبره بعام أو عامين وهو في الأربعين من عمره، وهو سرد لي من قبل أنه يعشق المرأة التي تكبره، لأنها هي التي تفهم الرجل وتستطيع حبه حقًا أما التي تصغره فهي دومًا تغار منه وتريد مناطحته فقط، ثم يمرر كفه على أسفل وجهي ويقول ماعدا أنت ياصغيرتي..

كبر الشك داخل رحمي وضيق الخناق على قلبي، ولم أعد أتركه يخرج وحده وأشم عطره المتغير كل يوم، وأتصنع أني سأذهب إلى عملي، ثم آخذ سيارة أجرة وأسير خلفه، أكثر تلك الأيام كنت أجده يجلس وحيدًا بعدما ترك عمله وفرغ للكتابة فقط، فالكتابين الأخيرين يدران عليه ما يرفع عنه عناء معيشته ويجهز بيتنا بعدما أتخذنا قرار الزواج الذي اتخذ منا تفكير خمسة أعوام، حتى هذا اليوم الذي جاء بالمشهد الذي انتظرته، وجعلني أشك في أن كل يوم ظننته يجلس وحيدًا كنت أرحل مبكرة قبل أن تأتي الهانم، لقد كنت مغفلة، في هذا اليوم عدت لأن قرون استشعاري تحسست هذا الشك، وكنت على حق يومها، جلست جوارهما على المنضدة التي خلفه، لأرى عن قرب وأسمع، متخفية في نظارة سوداء وحجاب وقبعة لربما يغيران ملامحي وجهي، لم يجلسا كثيرًا، لقد حان الميعاد، قالتها بعد الجلوس لشرب الماء وأخذته من يده وخرجا ..

الأشارة المرورية عطلت سيارتي الأجرة ولم أستطع ملاحقتهما، أما في المرة التي تليها سبقتهما وجلست بعيدًا عن موقعهما وقبل ميعاده وجدت المكان يعج بالناس، ومنضدة واحدة فقط هي الفارغة والتي هي جواري، وبالفعل وجدته يجلس جواري وبعدها أتت هي، تصرفت بحماقة تدفع أي امرأة تلاحظ توتري ومحاولة اخفاء شخصيتي، وحيث هي نظرت وجدني، طالت نظرته حتى كشفني وأنا أجهد أعصابي في عدم الاهتزاز غيظًا وحرجًا، أخذني من يدي بحنوه المعهود وعرفني عليها بأنها تلك السيدة الفاتنة التي تشبه الناضجات الأجانب وفي

شياكة امرأة أعمال عالمية، مترجمة ومهتمة بكتبه وبالأخص عدو النساء، الذي فتح فيه النار على كل نساء الأرض وكان أول رجل يقول عيوب النساء في وجههن دون الخوف من وسمة العار والوحدة الأبدية والكره، وإنها يتقابلا بشكل دوري لمناقشة بنود العقد والالتزمات مع الدار الأجنبية التي ستترجم وتوزع الكتاب، ثم انحرف مسار الكلام عن الحديث المفروض في تلك الجلسة العملية، حيث أنها اشتكت له من الرجال الذين يبدون لها إعجابهن وكثرتهن وكيف تكتشف الرجل المحب الحقيقي من بينهن، ومن بين هؤلاء جاءها شاب أبدى إعجابه بعض الوقت ثم انسحب وسألته هو؛ تعتقد لماذا؟!، هل لسنها أم لأمر آخر!؟، فلقد قال لها مرة إنه يخشى أن يكون مجرد حديث بين أقرانها..

نعم ولهذا لم يعد يهتم، وجعلك تحتارين في أمره وتقدرينه..

~ أتظن أننا كذلك حقيرات في مشاعرنا لهذه الدرجة، وأمسينا "حكائات" ..

المرأة صديقة الكلام، والكلام يحب الحكي، والحكي يجلب الأحداث، والأحداث يجب أن تكون شيقة، ولكي تجعل المرأة الآخريات ينجذبن لها ويهتمن بها، تسرد حكايات عن شراءها لأشياء، عن رغبة الرجال فيها، عن معاكسة أو مغازلة، أو تحرش، أتصدقين بأن هناك فتيات تؤلفن قصصًا لوقائع تحرش يؤكدن أنها حدثت لهن حتى يجذبن الأنظار لهن، حتى يقولن أنهن مثل الباقيات موضع اهتمام وهن سائرات، مثلها مثل حديث امرأة ناضجة عن مغازلة رجل لها أو فتى حتي، لا تصدقون امرأة أنها غضبت من مغازلة حتى لو كانت من رجل بغيض أو لأنها هي امرأة في غاية الاحترام، النساء لا يكن إلا وإن أحسسن بجمالهن حتى لو عن طريق قصص مؤلفة، وهذا على كافة المستويات التعليمية والمجتمعية، لقد قال لي مستشار جلس بجواري في أحد المقاهي " الطبيبة مثل التي جاءت من خلف البقرة كلهن نساء"..

إنني أطمح لإيجاد رجل مثلك ياعزيزي..

نظرت له مطولًا وهو مال برأسه إلى الأسفل كسوفًا كان أو احترامًا أو خوفًا مني، لكني قمت، رفضت الجلوس بينهما كالشجرة التي تظلل على مغازلتها له، أتصل بي بعدما فرغ منها وكلمة واحدة دفعها في أذني؛ أنت ضعيفة، ثم أغلق الهاتف في وجهي، وبعث رسالة أنه في أقرب وقت يجب أن نتقابلا لنتحدث، ومن يومها لم أره..

ثم ماذا، ورجاء،هذا تحقيق نيابة فقولي تفاصيل هامة..

نحن نساء مثل بعضنا ونقدر التفاصيل ولكن ليس هنا أمام وكيلة نيابة وتحقيق رسمي، أوصليني إلى من أين بدأت التفكير في ما حدث؟!

يومها أخبرتني صديقتنا الكاتبة والتي كانت أقرب صديقة تمارس الأدب بالنسبة له في المجال، حيث أفادته في كتابه كثيرًا من كونها إمرأة لا تفكر مثل باقي النساء، بل هي تمقت كل عيوبهن وشاركت كثيرًا في فكره وكتابته بنظرتها هذه ونظرياتها التي استنبطها منها في جلساته المتتالية معها، فاعتبرها المثال والطابور الأخير الذي سيخرجه إن ثارت النساء ضده سيجدنها واقفة أمامهن بجواره، لكنها اعترضت بعدما نشر الكتاب على بعض النقاط التي جعلتها تترفع وتنسحب من الحلف الذي كونه معها ومن جبهة حربه ضد حماقة المرأة وضعفها..

صباح الخير ياهند..

ومن أين سيأتي الخير وحبيبك "الموكوس" يضرب من جديد في بطون نسوتان عارتين الفخاذ واللسان..

أوضحت لي بأنه كتب مقالًا فتح عليه حنق أشهر فتاتين وقطبين في وسط حقوق المرأة، واتهمهن علانيةً بأنهن يشوهن صورة النساء في المجتمع، فكلما تعرت واحدة غارت الأخرى وتعرت أكثر منها، إن أردتي أن تتبني قضية لا تصبحي حرة إلا من خلال قواعد تلك القضية، هكذا كتب في مقاله الذي نشرته صحيفة تدعي حرية الرأي لكنها تنتقي كل ما هو مثير ويحدث الجلبة حتى لو متناقض مع ما نشرته سابق، فهم حتى ينشرون صور وأخبار تلك الناشطتين وهو استغل هذا.

استيقظ مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي، على شجار بين فتاتين هن الأشهر على تلك المواقع هذا لأن واحدة تغير من الأخرى وتحدثت عن سوء اختيارها لفساتينها، وأنها تشوه الذوق العام، فردت الأخرى عليها لمدة ثلاثة أيام،والناس لا سيرة لها غير هذا الشجار المخزي، الوحيد الذي تجرأ هو عدو النساء الذي استعد لتحمل صرختهما في وجهه واتهامه بأفظع الكلمات المشينات منهما ومن متابعينهما، والسخرية و"التلقيح" والفضيحة لأمور لا علاقة لها بالحدث من أساسه..

وكل ما أراده من ذلك هو إثبات حالة أن المرأة لا تنفع في المطالبة بحقوق المرأة، لأنها من حقها أن ترتدي ما ترتديه ولكن لا تمثل بهذا النساء جميعا، فهناك الفلاحة والمتحفظة والمنتقبة والزوجة والسيدة والأمهات، من حقها التظاهر والتجمل والكشف أو التغطية ولكن لا يربط هذا بشكل القضية، لأن ببساطة لا أحد يفصل بين الحرية الشخصية وحق حرية ناشط القضية، الأنبياء لم يسلموا من مهاجمة الناس وهم أفضل الخلق، من رغب في الدفاع عن قضية المرأة أو أي قضية يكون من أوسط الناس وأشبهم وأفضلهم وعليه نسيان حريته حتى تنتصر القضية فحريته من حرية قضيته فقط، والحرية هي سجن كبير حدوده تنتهي عند حدود الأخرين، والأخرين هنا أبناء القضية، إنما ما يحدث يحصر قضية المرأة في العري فقط..

هكذا أقفل مقاله في وجه كل من قرءه، في هذا العهد أنا لم أشاركه حياته، حتى بعدما عدنا كنت قد بدأت انشغل بعملي الجديد، وبمحاذاة نجاحه المضاد، بين ليلة وضحاها اشتهيت أن تتحدث عني الناس كما يفعلون معه، وكلما حاولت مقارنة نفسي به عدت خاسرة، فشلت كثيرًا..

بعد يوم شاق عدت وجدت منه رسالة تعجبت كيف عرف أني فشلت في نشر كتاب لي، عن كيف تصبحين امرأة مناسبة لرجل ناجح؟!، لم أعد أخبره وأحكي له عن كل شيء وأمست حياتنا نمطية، كنت أزوره في حديقته كلما سنحت الفرصة، وهو انتظر مني استكمال دروس النشان على العرائس الباقية لكني كنت قد مللت، وطلبت منه التوقف عن المتابعة..

وطلبت منه الراحة والرحيل بعض الوقت، فلم يتركني كان يجيئني ويزورني في عملي ويحرجني مع أصدقائي وصديقاتي الكارهين لسيرته؛ سواء والمعجبين بشهرته أو الناقمين عليه والحاسدين له، ومن بينهما جميعًا آخذه بعيدًا في كل مرة وأخرجه وأغلق وراءه الباب، لقد بدأت أكره حياتي وأكرهه، وذاد امتعاضي وضيقي به..

أتصلت بي هند مرة أخرى وأخبرتني أنه هذه المرة يضرب في بطني أنا، هذا اليوم الذي استيقظت على مقاله عن كتابي بعدما نجحت في الوصول لسيدة تقود حركة نساءية تعرف دار نشر موجهه لخدمة القضية النسوية، قد عرفتني عليها هند ووقفت بجواري حتى أخرج بكتابي الأول هذه كما فعلت معه فعلت معي، وظلت تدعمني لكني لم أسمع لها وأردت الابتعاد والانفراد بعقليتي أنا لا يشاركني فيها أحد من طرفه إطلاقًا..

وكانت النتيجة ما حدث..

لقد انتقد النقاط الفارغة التي جاءت في كتابي والهجوم الغير مبرر على الرجل الشرقي، على سبيل المثال، حينما قلت في أحد أبواب الكتاب البحثي؛ المرأة لا يهمها شكل الرجل ولا هيئته سوى الوصول معه للشعور بالأمان والاحتواء..

فكتب هو في مقاله ردًا على تلك النقطة ساخرًا؛ التي تقول لك إن النساء لا يهتمن بوسامة الرجل، وأن ليس الشكل أو الجمال مهم لهن، أقفز في وجهها الحذاء أو أبصق عليها، إنهن يركضن وراء الرجل الوسيم ويتغازلن في المشاهير وأغلب القصص الحب التي كسرت قلوبهن والمقالب التي وقعنا بها لأنهن أخترن الرجل الجميل فلاتسمع لها حينما تقول لك ذلك، فمع أول رجل رائع سيمر بجوارها ستنسى ماقالته، تعرف لماذا لأن الجميل يبرر له كل شيء ويتغاضى عن سلوكه وعيوبه ولابد أنه من قال إن الحب أعمى كان يحب جميل، فالنساء مثلهن مثل الرجال الفاسدون تمامًا، المساواة الوحيدة بين الرجل والمرأة أنهما يبحثان عن الأفضل والأجمل، فلا تصدق في أمر الفضيلة والفضائل، الجميع يخون نفسه، لا فرق، ولا تتعاطف مع واحدة جرحت من قبل لأنها هي المسؤولة عن اختيارها هي التي غضت بصرها عن عيوبه وتحملت وزاغت عن رجل أخر كان يحبها حقا لكن أقل جمالا، النفس البشرية تبحث عن الجمال حتى أنا وبرغم ذلك رضيت ببعض البشر الأقل جمالا، لكن عقدة النقص لا تترك النفوس سليمة..

لبيت رغبته في استكمال باقي التدريب، في تلك الفترة تعلمت بالفعل الامساك بالمسدس بقوة دون اهتزاز يدي وخشيتي لضرب الرصاص، بعد كل تلك الفترة من المرور على العرائس السابقة والضرب عليها بغزارة، يومها تركني وحدي أمسك المسدس من عنقه، وأواجه العروسة التي توضع فوقها كلمة الغدر، هل بدأ يخشاني؟!، لقد أخذ مني المسدس الذي أهداه لي بحجة أنني حمقاء قد أضرب قدمي به، لم أتذكر جيدًا هل كانت هذه الكلمة من ضمن الكلمات التي وضعها من قبل أم أزال واحدة وأضافها لينبهني لها؟!! ..

فتح لي الباب ودلف إلى مكتبه ينهي بعض الصفحات قبل الانشغال معي، دخلت عليه فوجدته يناديني لاسمع هذا المقطع من كتاب يتحدث عن زمن ما قبل ظهور المسيح؛ فجاء فيما قبل المسيح أنه ليس من مخرج عملي للتخلص من هذه الحالة إلا أنه من الناحية النظرية- بمقدور العاهرة أن تعود نقية مرة أخرى من خلال عملية دقيقة من التوبة، والتطهير، والكفارة، لكن هذه العملية تتطلب مالا وأموال العاهرة، حصلت عليها عن طريق، الخطيئة، ولا يمكن استخدامها لهذا الغرض، حيث أن أموالها موصومة وغير نقية..

ثم شرد بعيدًا عن الكتاب وهمس؛ الخطأة مساجين في خطيئتهم..

ثم أمرني بإحضار المسدس من غمده الذي في دولبه داخل المكتب، فوجدت أمامي الرصاصات كثيرة أحضرت منها الزيادة، وخرجت أبحث عنه في أرجاء البيت، ملأت مشط المسدس الدوار ووجهته على رأسه أثناء تحركه أمامي يمينًا ويسارًا..

كنت أختبر نفسي هل نجح في تدريبي حقً أم مازلت أضعف وأرتعش وهو بجواري أو أمام عيني، هل مازال قلبي يخفق كلما رآه أو سمع صوته، كنت أختبر حبي له، هل خلايايا ترتجف كلما شممت عطره، وهل ترتخي أعصابي كلما لمست شيء لمسه قبلي؟!..

جلب لي بعض المكسرات والمسليات التي كنت أحب أكلها معه ومن يده، ولكن هذا منذ زمن فات وهل مات هذا الوقت وتلكم الذكريات؟!، وبرغم كل ماحدث بيننا عدت إليه، البداية جاءت من ناحية صديقته هند التي دعتنا دون علمنا نحن الأثنين وأكدا لي ذلك وأقسما عليه، إلى ندوة عن روايتها الجديدة الثانية بعد خمسة عشر عامًا من روايتها الأولى..

عرض علي كتابة مقال يعتذر ويمدح فيه وليس مهمً أن يراه جمهوره بالمتراجع ويتهمه الرجال والنساء بحبه لمرأة، وضعفه أمام رغبتها والرجوع والركوع أمام كرامتها..

أليس هذا ما نحاربه ونطالب بتطبيقه فالأجدر أن نطبقه علينا أولًا..

هكذا قال وظل يصر وأنا أرفض لأن سيمسي رجل ضعيف أمام جمهوره وربما أمام نفسه وأنا لا أحتاج إلى رجل ضعيف في تلك الفترة، وقلت قبل أن أذهب إليه يومها؛ كيف تكون عدو النساء وأنت تحترمني وتحبني كل هذا الحب!!

أوقفني ليلتها أمام العروسة التي عليها الدور، وخطف مني المسدس وأصاب الأرض تحتها ببراعة ودون أي مجهود في التصويب بيده اليسرى فاليمنى مازالت ترتعش نتيجة العملية التي أجرآها فيها بشبابه بعدما دهسته فتاة كانت تتعلم السواقة وانطلقت بكل حماقة فرفعته على مقدمة السيارة ثم سقط على يده لتكسرها كسرًا مبرحًا، لأنها خشيت أنه سيمر فدهسته وهو ثابت في مكانه..

بعد محاولات مني فاشلة، طاشت الرصاصات إلى كل العرائس عدا المقصودة، ظل يعنف في ويدفعني لضرب الرصاصة الأخيرة في وسط الكلمة المكتوبة على رأس العروسة، يصيح في وجهي وفي ظهري، تذكرت حديث منسقتنا وهي تحرص على عدم تقبلنا لزعيق وصياح الرجل في وجهنا ولا حق الرجال في تعلية الصوت علينا، نحن لسنا خدمات ولا ضعيفات، نحن أقوى..

دفعني في ظهري كي لا أتردد، وإلى مشهد تلك الرفيقة في الحركة النسائية تشتكي من ضرب زوجها الأول لها والثاني والثالث، فقلت لها على طريقته ألم تفكري لماذا دفعتي ثلاث رجال على ضربك وأنت التي أخترتهن؟!، فصرخت المنسقة في وجهي بأي كانت الأسباب لا يحق لرجل أن يلمسك..

تزوجت ستة رجال..

نعم الأخير يحترم جسدي ولا يمد يده علي ..

لابد أنك تعلمتي من خمسة دروس سابقة..

أنتِ معنا أم علينا عجيبة والله .. أنت خائنة!!!

نظرت له بعنف مفرط، ويدي تعتصر المقبض غضبًا، ترنحت وأخذت نفسًا بعيدًا، كنت قد ظهرت في صورة المرآة المهملة التي تجسد تمثال المرأة الفارغة من العقل والقلب أمام نفسها عندما دفعني بقوة، ووقفت مكاني وعندما رأيت صورتي رفعت المسدس في وجهي، ووقف هو خلفي يمسك رأسي، ويهزها بزجر؛ أنظري إلى نفسك وأنت قوية، هل هذه هي أنت؟؟!..

ثم تركني ومر من خلف المرآة ليعود إلى الداخل ويتركني مع نفسي، في تلك اللحظة أتحدت كلمته مع كلمة المنسقة العامة وهي تدفعني لتخلص من كل ما يضعفني ويقمعني ويقف أمام غايتي وهدفي، ضغطت الزناد وانطلقت الرصاصة عبر صورتي في زجاج المرآة محملة بكل قساوة وأزر واستقواء لتدمر كل وهن وانقياد وليونة وجبن، كنت أضرب صورتي القديمة وأدمرها، كنت أكسر الزجاج بداخلي حتى لا يتبقى سوى الحديد..

وهذا ما حدث ياسيدتي القاضية..

أقسم أن هذا ما حدث بالظبط، لم أقصد اطلاق عليه النار، وأرديه صريعًا أو أشرع في قتله، حتى لو كنت انتقلت من قمة حبه إلى سفح الكره، لا أنكر أنني فكرت مرارًا في ذلك، لأنني تخيلت بأنه هو العقبة التي في طريقي، لكن الحقيقة وأقولها أمام سيادتكم وأمام الحضور والشاشات أنه هو كان السلمة التي صعدت عليها لأرى ذاتي ..

أعترض..

مرفوض..

حكمت المحكمة براءة المتهمة من تهمة القتل العمد

رفعت الجلسة..

"الدقة"

فرغت من الجلسة وتوهاني في القضية برمتها، وذهبت لزيارته في المستشفى، لاحظت زحام كبير أكثره نساء حول المستشفى وتعجلي للذهاب إليه لم يوقفني لتفسير ما يحدث، في الغرفة وجدت سعيد صديقه الذي يحكي لي عنه كلما جاءت فرصة، عن وعيه وكتاباته عن الإنجاب في هذا العالم والجرم الذي يرتكبه البشر في حق الجيل الجديد من البشر الصغار..

لحظة دخولي سمعت سعيد صديقه يمزح معه؛ ماذا أخذت من عداء المرأة، حبهن مثلي ولكن حاذر من إنجاب ضحايا جدد..

أنا عدو المرأة حتى أجد امرأة تعقد معي معاهدة سلام وحب..

تنحنحت وأنا أدخل على هذه الجملة التي استفذتني بالقطع برغم كل المشاكل التي بيننا وأنني المتسببة في إصابته هذه التي أجلسته شهر في المشفى، فنظر لي وأنا أتنحى جانبًا وقال؛ جعلتني أريد صفع كل امرأة أرآها على وجهها ومؤخرتها ومؤخرة رأسها.. شكرً جزيلًا..

عذرت اصابته ولم أشأ الجدل معه أو تحميله أكثر مما هو فيه، في حين مزح مع صديقه مرة أخرى راغبًا في إثارة غضبي؛ لو أن هناك امرأة واحدة ذكية في حياتي لأدركت أن عدائي للنساء هو في مصلحتها، فرد مزحه سعيد؛ لا تبحث عن المرأة الذكية فلن تجدها، ربما ستجد المرأة الزكية أما الذكية فهذا محال ـ ضحكا وسخريتهما لم ترفع عيني من الكتاب الذي جلبته معي لاستكمل قراءته، فرد عليه مستزيدًا في إغاظتي؛ المرأة حين تشتاق لا تخلق حديثًا بل تخلق مشكلة وهذا لأن مشاعرها حمقاء..

أصمته صديقه ليوقفه عن مداعبته لي الثقيلة على قلبي وحدثه في أمر صديق لهم، طلق زوجته بعدما أنجب طفلًا لم يكبر عن العامين، تحرمه منه بحجة الحضانة ولا يستطيع أن يرآه إلا بعد تعطفها عليه بساعة واحدة في الأسبوع، وصرخ سعيد ناسيًا أنه في مشفى؛ أي قانون أسرة هذا، فليسموه قانون المرأة أو نصرة المرأة أو تسلط المرأة، لقد أخذت منه القائمة بالأثاث كله والشقة والطفل، وهو ليس له أي حق ولو يوم واحد يربي فيه ابنه ويعرف أن هذا

أباه، هل هذا قانون؟!، أي قانون هو الذي لا يحقق العدالة ويرجح كفة عن أخرى وينصر طرف عن الأخر، ويظلم ويحرم..

صوته كان عاليًا ليسمعني جيدًا، حتى أنه تغلب على ضوضاء الزحام التي أمام المشفى، فقمت لأنظر من النافذة وقلت ساخرة؛ هناك مظاهرة نسائية بالأسفل يبدو أن معجباتك وأعداءك جاءوا ليطمئنوا عليك..

لم يأتوا للسؤال عن حالي بل جاءوا ليطمئنوا على نهايتي..

استدرت لصديقه وسألته حقًا عن عدم رغبته في الإنجاب فأجابني بدرجة صوته العالية المستمرة؛ لم أجد المرأة التي تصبح أم مناسبة لأولادي، فقولي لي وأنت امرأة أي من النساء المعاصرات ستخرج لي أطفال يتحدين هذا العالم المتقلب، بغض النظر عني دعكِ مني، أنظري للنشأ الموجود الأن، هل يعجبك حقًا أخلاق الأجيال القادمة؟!، كيف سيربى أطفالنا وأنا وهي بالخارج طوال اليوم..

وضعتني إجابته في مقعدي الذي تركته وعدت للكتاب بينما هو استكمل الحديث معه؛ الحل في الانتخاب الطبيعي ومقاومة الزنا والعلاقات والنتائج الخاطئة عن الزواج، الانتخاب الطبيعي، آي يعقم كل المواطنين عدا الصالحين فقط من كل شيء، صحيًا وجماليًا وفكريًا وأخلاقيًا هؤلاء هم من يسمح لهم بالإنجاب ويكون عن طريق الحقن المجهري مثلا أو الانابيب أو آي طريقة حديثة تشبه الانتقاء في الزراعة الحديثة، كذلك انتخاب البذرة الصالحة والتربة الخصبة لزراعة محصول بشري يساعد البشر على استمرار الحياة بشكل صحي، ثم نأخذ هذا النشأ ونضعه بعيدًا عن والديه، متشكرين لهما ومن ثم نصنع مدارس داخلية تخرج نماذج سوية ومبتكرة في المجالات الشاتة مع الأخذ في الاعتبار، كل مستقل بذاته لا قوالب متشابه، ويبقى السؤال؛ من هؤلاء الذين لم يصلوا إلى البويضة ؟! هل هم الأكثرحظًا أم أقل توفيقا؟!، ربما يقفون يستهزؤن بنا بينما نحن نسخر منهم، وتخبرنا علومنا عن فكرة أنهم أضعف وأقل حظًا منا؟!!..

سمعت أخر حديثه وأقفلت الكتاب ووجهت له الحديث؛ هل هذا هو الحل في نظركم، إما تجليس المرأة في المنزل للتربية أو فرض نظام للانتخاب الطبيعي يضع الحق لأناس معينة بالإنجاب وحرمان أخرين، نحن نعطي فئة حريتها على حساب فئة أخرى..؟!! كيف تفكرون يارجال؟!..

ترك سعيد يجيب وهو يعرف أنه متعاطف ومحبًا للمرأة ولكن لا يحب فيهن سوى جمالهن فقط؛ منذ ظهور المرأة وهي طفلة تراها لا تتغير،فلولاحظت سيدتي تصرفاتها فهي امرأة في جسد طفلة، قد يستطاع التنبؤمنذ صغرها بشخصيتها حينما تكبر، فترى ذلك من تصرفاتها أثناء لعبها، فلربما يقصوا الآباء في تقويم وتربية البنات لذلك ويتركوا دفة الأولاد لأنه تغيرهم الظروف وتصنع المواقف شخصياتهم..

فاللعبة التي ترغبها والدمية التي تتحضنها والنظرات والتمنعات والمرغوباتوحب الامتلاك، كلها تكبر معها، ولا تنسي أن المراة تولد بحس الأمومة فتجدها تتعامل مع عرائسها كأطفالها، فما حجة نساء حقوق المرأة في ذلك؟!

_ لقد تم حصر الطفلة في ألعاب المطبخ والتطريز والعرائس ..ومن حقها اللعب بالرجال الأليين ..

لا أحد يعترض، استدار بكامل جسده للخلف للمرة الأولى؛ حتى لو تم تبديل تلك الألعاب ستحضتنها كأطفال، ولربما حصرت في ذلك لأن السابقين رأوا أنها تفلح في تلك الأمور ولديها موهبة فطرية في الدقة والملاحظة والتذوق، ولو تم تبديل تلك الأدوات ستجدها تحنو بشكل لا إرادي لتلك الأشياء لأنها بداخلها مجموعة من البرمجيات بكل خلية، وجسدها معد لذلك، جسدها الغض البض وثدييها الحنونين هم للأطفال والاهتمام بهما وبأبوهم والبيت، لقد خلقت المرأة ووجدت رجل ليحبها وهو سعيد بمجرد وجودها ويريد إسعادها فما يمنعها من التدلل وما يدفعها الأن لرفض كل هذا؟!!، فما دهى عقل المرأة وماذا أصابها في جمالها للتطالب بالتساوي مع قباحة الرجل؟!..

لا يختلف الرجال كثيرًا عن بعضهم، لكن يختلف الأسلوب ما بين الهجومي واللطيف، اشتد هتاف خارج أسوار المشفى وبدأت تتشكل ملامح الأحداث بالخارج، لقد تجمعت مظاهرة ضد هذا الراقد فوق السرير، حينما عدت من النافذة وجدته يستعد لارتداء ملابسه، فيما جاهد صديقه في عودته للسرير وهو يصر على النزول لهن؛ الخوف لا يمنع الموت، الخوف يمنع الحقيقة والحياة والصوت، إذا أردت هزم امرأة أخبرها بالحقيقة التي تعرفها هي جيدًا وتنكرها..

استمر في قول جمله هذه وهو خلف الستار الأبيض يرتدي سترته التي جاء بها والتي أيضًا تحمل أثار دماءه وثقب الرصاصة، ونزل برغم تحذيرات كل من رآه وقابله في الطريق إلى الخارج، عدا بعض الممرضات والطبيبات اللاتي تكاسلن عن دورهن أو تجنبنه لأنهن يرونه يستحق الحرق، وقف أمام الجمع فوق السلم العالي في فوة المبنى، فيما دفع الحشد الباب ودخلن ساحة المشفى وصمت ما إن رآه؛ يا أيتها النساء أنا رجل عظيم لأنني تعلمت من أخطائي وأخطاء الرجال وعرفت نساء حمقاوات كثر..

ضربت كفًا على كف لأنه ليس هذا وقت لاستفزاز المتظاهرين، يكفي أنه قد عادى كل نساء المجتمع، في الوقت التي نجحت المرأة في بلدان مجاورة للوصول لرئاسة الوزراء وترشحت لرئاسة الجمهورية وحصدت أصوات كبيرة في الانتخابات الأخيرة في بلدنا، وصارت نسبتها في البرلمان أكثر من ثلثه، ووصلت لمناصب عدة كأكثرية في عضوية النواب والأحزاب ونساء سياسين ونساء أعمال، يقف هو في طريقها ويريدها التراجع الأن بعد كل هذا الطريق الطويل والنجاح المرهق لتذكيرها بدورها الأول على الأرض..

نظرت بعيدًا إلى الحشد فوجدت بعض المنسقات الناشطات التي أعرفهن من العمل معهن وقد استأجرن سيدات شعبيات ووزعن عليهن شيء في يديهن لا استوضحه من الزحام، علمت بعد تلك الواقعة بأن الناشطات اقنعهن بأنه يكره وجود المرأة ويعاديها ويطالب بقتلها بشكل جهولي، ووؤدها في صغرها ودفنها حية وهي كبيرة وقتل كل النساء البدينات والقبيحات، ومن بين الحشود تحركت المنسقات والسيدات الشعبيات وأخريات جاءوا شقين الصفوف رافعين ما هذا؟!

هذا!!

هكذا صرخت، ولكن لم يخرج صوتي للعنان من علو الهتاف وابتلاع حنجرتي من الصدمة، ليس خوفًا عليه فقط بل على ما وصلت إليه القضية بسببي، بل على ما فعلته واسهامي بتحويل المرأة من السلمية إلى حمل السلاح والحرب، لقد حضرن ليكملوا ما فشلت فيه أنا كما يعتقدن في ويهتفن به، جاءوه بعد حكم المحكمة ببرائتي، لقد حملن النساء بسببي مسدسات وجاءن ليطلقن عليه النار، أردت رمي جسدي عليه والوقوف بينه وبينهن حتى لا يقتلنه، لكن بعض النساء سحبنني من خلفي، واتجهت المطلقات في طريقهن ورفعن الفوهات وأطلقن النار..

لكن الرصاص لم يأتي في الرجل بل قتل النساء، حلت الفوضى على المكان كله حينما تجمعت النساء مع بعضهن، حينما تشاجرن على من يقتله حينما أشهرن الأسلحة، والآخريات الواثقات من أنفسهن كانتن غير دقيقات في التصويب، فأصبنا القريبات منه..

تنبها لما يحدث بعدما رأوا دفعي للخلف من قبلهن، فدفعه صديقه سعيد للداخل، وهربا من الباب الخلفي، لقد قال لي الطبيب المعالج وأنا أبحث عنه أنه ساعده في ذلك، فيما عمت بالخارج الفوضى وانتشرت الجثث على سلم المشفى وأمامه في الشارع، لقد أصاب الرصاص جميع النساء المتظاهرات ورقدن هامدين على الأرض، لقد قتلت المرأة المرأة، بيديها- بذات السلاح التي أرادت بيه هزم الرجل..

بعد الواقعة والفاجعة تلك، تفجرت حركات نضالية مستوحاة من ما فعلته، ونشأت حملات توجيهيه ترفع شعار المسدس والرصاصة، لقد أفاد ما فعلته عن غير قصد القضية، وبات رمزًا للبطولة الخرقاء وأطلق ثورة المرأة الثانية والتي يقف في ظهر صفوفها الرجال هذه المرة ولكن خلف خلفيات النساء البارزة وفساتينهن المكشوفة ..

وهذا اعتراف مكتوب مني بذلك وإقرار؛ بأنني لم أرغب سوى تحقيق ذاتي بجوار الرجل الذي أحببته وأن أصبح امرأة مناسبة له، وأن أصير امرأة مجرد أمرأة، ولا ذنب لي فيما حدث بعد ذلك..